روايات الهلال

سمير عبد الفتاح

الحائط الأخير

5376

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تُصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١
ـ تلغرافيا: المصور ـ القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٨٠٠٠ ليرة - السعودية ١٢ ريالا- البحرين ١,٢ دينار- قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - اليمن ٥٠٠ ريال - فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الحائط الأخير

رواية

سمير عبد الفتاح

المرء مع من لا يفهمه .. سجين !!

جلال الدين الرومي

الفصل الأول

تبدأ أشرس الحروب بطلقة
وأعنف الأشواق بنظرة
وأطول الأحزان بغصة
وأول الميلاد بصرخة
وكذبة الحياة بحكمة
وكل نهاية ببداية !!

والبداية كان يمكن أن تتحول إلى نهاية، لو أننى طويت صفحة "الألبوم" كعادتى، وترددت بين الباب والنافذة ، أو أمعنت النظر فى أية صورة أخرى غير تلك الصورة الغامضة:

صورتى - مثلا - وأنا تلميذ يتخايل بطربوشه،أو صورة أبى وهو يضع يده على كتف أمى فى ليلة عرسه، أو صورة أختى الكبيرة قبل أن تتزوج، وتهاجر مع زوجها إلى كندا، صورتنا جميعاً، ومعنا أخى نبيل قبل أن يهاجر إلى أستراليا، فى وقت كنت أدرب جنودى على القفز بالمظلات، وأسأل نفسى:

متى نتخلص من هذا الهم الثقيل، الذى يجثم على صدورنا، ويقض مضاجعنا آناء الليل وأطراف النهار؟

فمن تراه التقط هذه الصورة الرمادية الكئيبة، فى هذا الجحيم المستعر؟ وكيف جاء بالكاميرا إلى المعسكر.. وخرج بها؟!

والأكثر أهمية: كيف آلت إلىَّ وحدى؟!

أتيت بالعدسة المكبرة، وأمعنت النظر فى تفاصيلها، فتذكرت بعض التفاصيل، وحين دارت طواحين الذاكرة تذكرت كل شئ : رأيت النقيب "سعيد البطران" وهو يسقط إثر طلقة طائشة، ورأيت دبابات العدو تسحق رأس الملازم "عبد الفضيل" وعرفت كيف أُسر الرقيب "فتحى وهدان"، وكيف انفجر لغم أرضى فى العريف "محمود شاهين" وبترت ساق العقيد "جابر السماحى" حينما أراد أن يعبر حقل ألغام، وكيف تاه المساعد "سميح البلتاجى" فى الصحراء ولم نعثر له على أثر، فمن يكون ذلك الذى يسند ظهره العريض إلى ظهرى.. ويمعن النظر فى السماوات المفتوحة ؟

من ذا الذى كان يبتسم، فى ظرفٍ عزّت فى إيهابه البسمات؟!

سحبت الصورة من ألبومها، فكادت تتفتت فى يدى، وحين قلبتها على ظهرها وجدت الاسم كاملا:

(شكرى إبراهيم السباعى ـ عزبة السباعية ـ شرقية فى ١٩ مايو ١٩٧٣ س ـ ح .. ثم رقم التليفون ، وتوقيع غامض) .

تركت الصورة على مكتبى، وعدت بالشاى والبسكويت.. ومن خلف الستائر الحريرية المسدلة، ميدان الدقى يموج بالناس والسيارات، فيما كانت السماء الملبدة بالغيوم ، تنذر بالمطر.

ـ شكرى السباعى.. شكرى السباعى.. س. ح .. ماذا تعنى هذه العبارة .. ويعنى هذا التاريخ؟!

رفعت الصورة وتأملتها من جديد: كل شىء فيها رمادى وكالح.. وعتيق، لكنه مضمخ بعطرٍ فادح، وسحر غريب!!

وحين عدت بذاكرتى إلى الوراء، هالنى أن يخرج أحدٌ من هذا الجحيم المتقد، دون أن تسحقه دبابة، أو تفتته الألغام ، أو تصيبه طلقة طائشة، فماذا عن سقط بمظلته خلف الخطوط ، أو رصدته طائرات العدو؟!

أنا نفسى لا أعرف بعد أن تغيرت معالم الروح، خرائط الجسد. كيف خرجت من هذا الجحيم المستعر، فلم أفقد سوى نصف ذراعى اليسرى، وجزءاً بسيطاً من قدمى اليمنى!!

فهل بقى فى سراديب الذاكرة غيرالشموع المطفأة .. وفى حنايا القلب سوى بعض الأشواق والأسى؟!

سحبت التليفون وطلبت الرقم، فسمعت من تخطرنى بأنه غير موجود بالخدمة.

قمت متثاقلاً إلى النافذة ، فرأيت المطر يغسل الطريق، والناس تفر إلى بيوتها، قبل أن يحل الظلام، أو تقطع الكهرباء .

وحين تأملت حالى، هالنى أننى لم أخرج من هذه الدنيا بصديق!! ووجدتنى أملأ حقيبتى بما تيسر، وأغادر الشقة الكئيبة، إلى الفضاء الوسيع، بل ووجدتنى أتذكر طفولتى فأفتح يدى السليمة للمطر، وكأننى عصفور خرج من قفصه، وحين ركبت إلى (السباعية) وجدتنى أسأل عما عساى أقول لزميل، لم أره منذ عشرين عاما ، زميل لا أعرف اسمه الكامل ، وإن كان على قيد الحياة، أم فى ذمة الله؟! وهل يحب كل الناس، أن يتذكروا ماضيهم المؤلم، وفواجعهم الرازحة؟

ـ من فضلك تأكد من الرقم الصحيح!

فمازلت أذكر ما حدث لى فى نادى الضباط، حين أتانى البريد بدعوةٍ لعقد قران ابن زميل قديم - لا أذكره - على ابنة زميل حديث - لا يذكرنى - وما كدت أصافحهما وأسألهما عن أحوال أبويهما حتى انخرطا فى بكاء مرير، فتعكزت متسللا إلى الخارج، وقررت ألاَّ أورط نفسى فى مثل هذه الأمور أبداً..

- شكرى السباعى.. شكرى السباعى.. هل هى "توريطة" جديدة؟!

حارة سد؟ إحياء لذكرى .. أم فخ لأسى جديد؟!

أستطيع الآن أن أتدبر أمرى، بعد أن عرفت الفارق بين النور والنار.. أستطيع أن أبتلع أحزانى، وأنتظر ما ستأتى به الأيام، أو أحوله إلى عادة ، فأقرأ الصحف دون أن أشغل نفسى بتحليلات، أو خلافات توجع القلب، وترهق البدن!!

نعم .. مسافة ما من الحياد والبلادة ، لابد أن تربطنى بهذا العالم المشتبك، ما دام الوعى يجلب التعاسة، ومادامت المعرفة تثقل القلب وتضنى البدن ، لذلك توقفت عن المشاركة فى أية مناسبة من أى نوع ، فلم يعد يهمنى من هَزم أو هُزم :

الأهلى أم الزمالك؟

ولا من سافر أو وصل، تزوج أم طلق، عاش أو مات!!

ومن ترفعى هذا أتتنى الحكمة، وطاوعتنى الأمانى!!

- من فضلك تأكد من الرقم الصحيح.. وأعد المحاولة ...

كان راديو السيارة ينقل صوت أم كلثوم:

- وإيه يفيد الزمن مع اللى عاش فى الخيال؟!

طلبت من السائق أن يغير المحطة ، فغيرها بأغنية أخرى :

- وأقول ياعين.. بالدمع جودى ياعين!

- آلو.. إزيك يا عبد الحميد؟

- أهلا يا سعاد!

- إيه النظام معاك؟

- أى نظام؟!

- نظام الدنيا.. عامله إيه وياك؟

- عايزه نظام!

- مفيش جديد؟

- ولا قديم.

- وأخبار القلب إيه؟

ومثل كل مرة، راحت تعدد فوائد الزواج.. وكثرة الأولاد والأحفاد، وضرورة الانخراط والارتباط، فتملكنى الملل.. وتمنيت أن ألقى بنفسى فى نهر، وقبل أن أنهى المكالمة، أفهمتها أن الأمور يجب ألا تبسط بكل هذا الابتذال، ثم سألتها إن كانت سعيدة بزواجها فنفت، لكنها قالت إنه حل من الحلول..

يكفى أن.. وأن.. وأن

- والنبى طلعينى من مخك ياسعاد .. باى باى!!

- وقول يا عين..اسعفينى يا عين.. اسعفينى يا عين!!

وكان المطر يصفع زجاج التاكسى، حين اتصلت سعاد من جديد :

- آلو ياعبد الحميد.. إنت رحت فين؟!

- حروح فين ياسعاد ..نعم؟

- تليفونك مبيردش ليه ؟ إنت فين دلوقت؟

- أنا فى الشارع.. مسافر لواحد صاحبى!!

- صاحبك؟ أنت ليك صحاب؟!

- زميل.. زميل ياسعاد.. ساكن فى الشرقية!

- دى بعيدة أوى يا عبد الحميد.. أنت طهقت من البيت ولا إيه؟

- آه .. حاسس إنه بقى قبر!!

- طب حاول تسلى نفسك بأية حاجة ، حاول تسقى الزرع مثلاً.

- سقيته!

- إقلعه وازرع غيره .. اعمل أية حاجة تسعدك. عاوز فلوس؟ أبعت لك هدوم؟ أجهزة ؟ قول ماتتكسفش.

- عندى كل حاجة يا سعاد..مشكلتى إنى مش عارف عايز إيه؟

- وده يخلينى أقلق عليك أكتر.. طب بقولك إيه.. تحب تغير العربية ؟ فيه موديلات هنا غير اللى عندكم خالص؟

- وهو أنا بركبها ياسعاد علشان أغيرها.. دأنا مسافر فى تاكسى .. وراكنها فى الشارع .

- أحسن برضه.. أنا عرفاك عصبى وممكن تدوس أى حد.. والمثل بيقول هين قرشك ولا تهين نفسك.

- حنقضيها كلام يا سعاد؟!

- أبداً.. أنا حبيت أسليك لحد ما جوزى يرجع من الشغل.. نبيل أخوك ما اتصلش بيك بمناسبة الكريسماس؟

- لأ.

ـ اخص عليه.. شهرين ميتصلش.. هو مستخسر تمن مكالمة ؟

كانت المزارع تمتد على الجانبين، حين فتحت زجاج السيارة، وشعرت بالهواء المشبع بالمطر يصفع وجهى. فيما أسرع السائق وأغلق الزجاج، وهو بين الاعتذار والحرج .

ـ آلو.. عبد الحميد.. رد علىّ يا عبد الحميد.. آلو.. آلو.. مقلتليش أتصل بيك إزاى؟..وفين السباعية دى؟..آلو .. آلو.. عبد الحميد.. ياعبد الحميد.

ورمقنى السائق من مرآته الصغيرة متعجبا، حين رآنى أفتح الزجاج ، وأرمى بـ"الموبايل" فى ترعة على جانب الطريق!

ـ فيه حاجة يا أستاذ؟

ثم داس على الفرامل فتوقفت السيارة.

ـ لا مفيش.. خد طريقك.. مجرد خلاف عائلى!!

الفصل الثانى

كنت مدفوعا بقوة اليأس، حين أنزلنى السائق على قارعة الطريق وعاد متعجباً.. لم يكن يعنينى رؤية زميلى، بقدر ما كان يعنينى أن أختبر ذاكرتى، وقدرتى على التحدى.

أكذب لو قلت عكس ذلك، وأكذب لو قلت إننى أتذكر ملامحه!! فلم يكن بمقدورى أن أتعرف عليه لو رأيته وجها لوجه، ليس لأنه لم يكن قريبا منى فحسب، وإنما لأن مرور أكثر من عشرين عاماً على آخر لقاء بيننا، يكفى لأن تتغير فيها جبال، وتتبدل خرائط، فما بالك بملامح شخص؟!

نعم.. كنت مدفوعا بقوة مغناطيسية غامضة، وكلما تقدمت نحو الهدف، شعرت بما ينتهى خلفى وينقضى. فعبرت حارات ومدقات، وركبت مركبات، وتجاوزت عزباً وكفوراً، وخضت فى غيطان وبساتين، فسمعت مواءً وهسيساً، وثغاءً ونقيقاً، وكلما اقتربت من مشارف السباعية ، احتد المطر، وأرخى الظلام سدوله علي الروح والبدن، ووجدتنى أجوس فى مقابر مظلمة، وأحتمى بأشجار تفعمها البروق، ويسفحها الشرر، وقبل أن يؤذن للفجر، وجدتنى أسأل نفسى، فأتخيل من ينصحنى بالاتجاه نحو اليمين، أو الانعطاف نحو الشمال، ومن يلحظ صعوبة خطوتى، فيدعونى لركوب ناقته أو حمارته، ومن يحذرنى من الطريق ، وقطاع الطرق، ومن يرى عكازى فيطلب أن أركب أى شىء!!

كان كل ما يشغلنى هو: ماذا أقول لزميل لم أره منذ عشرين عاما؟ كيف أبادره بحوارٍ لم أعده ؟ وماذا لو كان قد فارق الحياة، بالفعل ، أو أنكر معرفته بى ؟!

أسئلة كثيرة ظلت تتلاطم فى وهاد ذاكرتى ، وأنا أدنو من "عش الدبابير" هذا المشهور "بالسباعية"!!

وكلما اقتربت من مرابعها، تماهى إلى سمعى صهيل جياد جامحة، وعواء كلاب رأت عزرائيل يجوس فى طرقات القرية، وسمعت قطاراً يعبر مزلقاناً بعيداً، ومقيم شعائر يمهد لأذان الفجر.. حتى باغتنى ذلك الصوت المرعب الغريب:

ـ مين هنا..ا..ا..ك؟.. أقف مكانك!!

فتجمدت فى مكانى، وشعرت به يختفى خلف شجرة، وينتظر أول حركة مريبة .. ليطلق الرصاص!!

الفصل الثالث

لم أجد بدا من الخضوع لإرادته ، فأعلنت عن شخصيتى، ثم اقترب شيئاً فشيئاً فبدا شبحا مفزعاً، ما لبث أن وضعنى فى مرمى نيرانه، وسألنى عن اسمى، وسبب قدومى فى هذا الجو المطير. فأجبته بسرعة ، وكأننى أتخلص من كرة نار ألقاها علىّ شيطان رجيم !

فمازلت أذكر يوم أوقفنى جندى الكتيبة، وكاد يقتلنى حين تأخرت فى كلمة السر، ويؤلمنى موت الرقيب محمود الشيمى حين تصور أنه أكبر من أن يرضخ لجندى حراسة، ولما كان العدو قد تسلل ذات ليلة، فقد قضت الأوامر بإطلاق النار على كل من لا يعرف كلمة المرور، وحين تكبر الرقيب وتوعد، لم يتردد الحارس لحظة، وأطلق عليه النار ففتت كبده، وجعله يعجن الرمال بدمه!

– مين هناك..؟ ارفع ايدك فوق!

لا أعرف لماذا طفت هذه الواقعة على ذاكرتى ، فصحت على الفور: أنا يا ريس.. أنا..

ـ أنتْ مين؟

ـ أنا الرائد متقاعد عبد الحميد الدومانى..

ـ رائد مين؟

ـ رائد متقاعد..

ـ وعايز إيه يا سى متقاعد؟

قال هذا ، وهو يقترب بحذر ، ولما وجدنى نحيلاً، أنزل البندقية بهدوء، وهو يدنو بجسمه الضخم، وشعره الأشعث، فصحت محاذراً وكأننى أوقفه:

ـ مش دى عزبة السباعية؟

ـ هى الهبابية..عايز مين؟!

وما كدت أسأل عن النقيب شكرى السباعى حتى تجمد فى مكانه، كأننى سألت عن عفريت. تراجع خطوتين ، وكأنه يريد أن أكرر السؤال فكررته، وأنا أشعر بذنب يخنقنى..

إذ ليس من اللائق أن تسأل عن شخصٍ ربما يكون قد مات منذ ربع قرن، وها أنت تنفخ فى رماد الألم والفجيعة ، وتنتظر أن يعاملك معاملة الفاتحين!!

لذا شعرت بخجل منعنى حتى من الكلام ، وبات علىّ أن أنسحب بهدوء، وقبل أن ألوم نفسى، وآخذ طريقى إلى حيث أتيت ، نادانى الخفير وطلب أن أستريح من المشوار ريثما يطلع النهار، ويخف المطر، ثم سبقنى إلى "خص" صغير بنى بأعواد الحطب. وغطى بمشمع قديم، ظل المطر يتخلله، والريح تعصف بأركانه ، ثم سحب قصعة نارٍ من تحت الفراش، ووضع بعض الحطب، فكانت النار، وكان الدفء والضياء .

ـ أنت مش عايز تصارحنى ليه يا ريس؟

ـ أصارحك بإيه يا أفندى؟

ـ مش دى عزبة السباعية؟

ـ اتكلم يا بنى آدم.

ـ الله، ما قلنا هى .. ده دى!!

ـ أمال فين النقيب شكرى السباعى؟

ـ معندناش حد بالاسم ده!

– كان فيه ومات ؟ معلش.. خدنى على قد عقلى!

– يا افندى ما أنا خدتك على قد عقلك.. بس أنت عقلك اللى صغير شويه.. أعملك إيه بس؟

– طب ممكن تسأل حد فى البيت ده؟ جايز حد يعرفه!!

ـ أولاً: دا مش بيت.. ثانياً: ده قصر الست أميرة هانم.. وأنا الغفير بتاعها. فيه حاجة تانى؟!

قدمت سيجارة فأخذها بنصف استرابة ، وربع ذهول، وناولنى عوداً مشتعلاً وكأنه يريد أن يتأكد أنها لن تخدره ، أو تنفجر فى وجهه، وحين تأكد من ذلك ، سحب نفسا عميقا، وسألنى فجأة:

ـ وحضرتك كنت فى الجيش ولا فى الشرطة؟

وقبل أن أجيب عليه، سمعت صرخة تتناهى من بعيد:

ـ الحقو..و..ونى..

فوقفت متسائلاً فزعاً ، فلم يهتم الرجل، وحين صرَّحت له بما سمعت، أنكر ذلك، وقال إنه لم يسمع أى شىء!!

ثم قدم سيجارة ملفوفة، فكدت أقول: إننى لا أغير سجائرى، لكن بما أن حياتى كلها قد تغيرت، فلتتغير سجائرى. أشعلتها فوجدتها أقرب إلى (السبارس) وحين تأملت ملامح الرجل على ضوء النار المستعرة، هالنى الحول فى عينيه، والغلظة فى ملامحه، وتوقعت أن يكشف عن ساقيه، فإذا بها ساقى عنزة، لكن الغفير خيب ظنى، حين طلب أن أمهله لحظة، وبخطوات متثاقلة، وجلة، اقترب من بوابة القصر، وما كاد يصل إليها حتى سمعنا الصرخة، تتكرر من جديد:

- الحقو..و..ونى..!!

وتوقعت أن يعود الرجل راكضاً جزعاً، لكنه ظل جامداً فى مكانه وكأنه لم يسمع شيئاً، فتدبرت أمرى، وتشككت فى حواسى، لكنى أحلت الأمر للإرهاق والسفر. فلم يحدث أن مشيت فى حياتى كل هذه المسافات، حتى وأنا بصحتى.

كان القصر شاسعا يجلله الغموض، وتحيط به أشجار شاهقة، وأسلاك شائكة من كل جانب ، ولايقود إلى غموضها إلا بوابة حديدية ضخمة، يبدو أنها لم تفتح من قبل . فيما تتأرجح بعض المصابيح الكهربائية الخافتة على أعمدة قصيرة صدئة. فترسم أشكالاً مرعبة على وحل الطريق.

وقف الخفير عند البوابة المغلقة يضغط على "ديكتافون" حائطى يتكلم، ثم يضغط عليه وينتظر، فيسمع إجابات أتتنى جارحة فظة... يدعمها السباب والتهديد بالفصل.

لذا مر وقت طويل قبل أن يأتى الرجل مهزوماً منكسراً.. فلم أشعر بحاجتى لأية إجابة منه، نعم يكفى ما حدث له. ولكن يبدو أنه لاحظ ذلك، فاكتفى بإشارة إلى أن زيارتى هذه قد تقطع عيشه، وتشرد أولاده، وأنه من الأفضل أن أعود من حيث أتيت.. وكان على حق.

كان المطر قد هدأ قليلا، حين حضنت حقيبتى وعصاى، وأخذت طريقى فى ذلك الليل البهيم، إلى أقرب طريق سريع.. وأنا ألوم نفسى، وألعن سوء طالعى.. ثم توقفت عن جلد ذاتى، حين وضعت الأمور فى إطار لعبة..

- طوقوه.. محدش يعوره محدش يعوره!!

كان الصوت يأتى من القصر البعيد، فيما كنت أودع الخفير، دون أن أرى أى رد فعل على وجهه، وكأن هذا يحدث كل يوم وقبل أن يختل عقلى،

سألته عما يحدث هناك بالضبط، فلم يزد عن إخطارى بأنه مسئول عن هذه البوابة فقط. أما الداخل فلساكنيه!!

ولأن الأمر لم يعد يعنينى فقد أوليته ظهرى، ففعل مثلما فعلت، وكأنه تخلص من مصيبة، لم يكن ينتظرها. وفى لمحة خمنت أن يكون الأمر يتعلق بذئب عاثر أو لص أحمق، أو حصان هرب من المطر.

وبخوف قديم رحت أتحسس طريقى، وأستمع لصوت خطواتى الوجلة على وحل الطريق، وكل أملى ألا أخوض فى مستنقع، أو أسقط فى ترعة، أو أدوس على ثعبان نائم أو جثة طافية، بعد أن تداخلت الحدود، وتضاربت الخطوط، وظل البرد والظلام يمعنان فى الولوج والكثافة. وكلما أوغلت فى المسير، أمعنت "السباعية" فى الابتعاد والأفول.. وظلت تتضاءل وتتضاءل حتى صارت نقطة خافتة فى كون لا نهائى من الظلام، وقبل أن يختفى ذلك الضوء من الوجود، أتانى صوت الذئاب واضحاً ونذيراً .. فتفجرت مخاوف الطفولة، وغريزة البقاء، وبات علىَّ أن أختار بين التعامل مع الذئاب، أو العودة لقصر دراكولا.. وحارسه الجهيم!

وعلى الرغم من أن حياتى لم تكن رغيدة، حتى أحرص عليها، إلا أننى شعرت بخوف غريزى مفاجئ، خوف لم أشعر به حتى وأنا أجمع أشلاء جنودى، وأدفن أطراف زملائى، والنيران من حولنا تحرق الأرض، وتذيب الحديد والحجر.

لذا وجدتنى أختار بين بديلين كلاهما مر.

لذلك وجدتنى أستدير على عقبىَّ، وأعود لتلك النقطة الخافتة، قبل أن تختفى، وتختفى السباعية.

وفيما خفت عواء الذئاب، كانت النقطة تكبر وتقترب، حتى تناهى إلى سمعى أذان الفجر هادئاً وشفيفاً، وحين اقتربت أكثر من البيوت الهاجعة كانت الديكة قد سكتت، وبدأت العصافير تستعد لشقاء يوم جديد. حين أتانى الصوت واضحا ونذيرا.

ـ مين هنا.. ا.. ا .. ك؟ ارفع ايدك فوق!!

وحين عرفنى، أنزل سلاحه القديم، وكأنه يسألنى ـ بملل وفتور ـ عما أرجعنى! وبعد أن داهمه اليأس.. وشعر بأنها "خربانة خربانة"، دعانى إلى عشته ومد يده "بكوز شاى" متسخ، وكأنه يقول: "اشرب واتكل" فأخذت الشاى متلهفا، وسكبته على معدة خاوية ، فشعرت بالدفء يسرى فى شراييني، قبل أن أرى شبحا يقف خلف البوابة الحديدية، وينادى على الخفير لاعناً أجداده!

كانت المسافة بعيدة، والضوء ضعيفاً، لكنى رأيت الشبح يتشح بالسواد، ويتحرك كأنه يعمل ببطارية.. فيما سمعت الخفير يعتذر، ويحاول أن يقلل الخسائر ما أمكنه ذلك، بينما الشبح يلعنه بألفاظ جارحة، ويلوح بهدم الخص وسفح دمه ..حاولت أن أقترب موضحا ومبررا، لكن الخفير منعنى بإشارة مُحذّرة !!

ولما كنت قد عزمت على المغادرة، حالما تشرق الشمس، فقد رأيت أنه من الأفضل أن أستبعد كل الأفكار التى تدعونى للمغامرة، وليذهب شكرى وأهله إلى الجحيم!

وفيما كنت أنتظر توقف المطر، شعرت بالحنين إلى قوقعتى، وحاجتى للمكوث فى شقتى الدافئة، بعد أن أدركت أن جو المقاهى والمنتديات لا يلائمنى. ولم يضف لى صديقا، كنت أشعر بأن قدرتى على تحمل المدنيين

محدودة، وأننى لا أستطيع أن أخون وعيى أو مزاجى، وبات علىَّ أن أتعامل مع هذا "الواقع الجديد" وأتكيف معه.. فحين ترددت على نوادى الضباط وصيّفت فى مصايفهم، أدركت أننى ضللت الطريق.. وأن ما أراه شىء، وما أشعر به شىء آخر، وأن محاولاتى محكوم عليها بالفشل. بعد أن تداخلت العائلات وتعددت، ومات العائل، أو هاجر إلى بلاد النفط، وترك أولاده تكبر أجسامهم وتصغر عقولهم، وتشغلهم الأغانى الراقصة ، وتسريحات الشعر عن أى شىء آخر! وزوجات يضج الحرمان من عيونهن ،والرغبة من شفاههن، يتفاخرن بما أكلنه، وشربنه، ويحاصرن بعيونهن النهمة.. كل الذكور من حولهن!!

ـ اتفضل يا سعادة البيه.. كلم بسطامى!

ـ مين بسطامى؟!

ـ السايس بتاع الهانم. اتفضل. سمحولك بالدخول!!

كان الخفير يتهلل فرحا ، وكأنه اكتشف مجرة جديدة،

ولأنى لم أفرح لذلك، فقد أصابه رد فعلى بإحباط، وكأنه يقول:

ـ أمال خاوتنا من الصبح ليه؟

وكان الشبح قد فتح بابا جانبيا.. ووقف ينتظرنى فترددت، ولثانى مرة فى حياتى أشعر بخوفٍ شل قدرتى على التفكير ، ويبدو أن الخفير قد لاحظ ذلك ، لأنه حثنى على الدخول عدة مرات، بل وكاد يدفعنى نحو البوابة الصدئة وكأنه يقول:

– غور فى داهية..

ثم رجانى أن أنكر استضافته لى، ولطفه معى..

فوعدته بذلك.. وأخذت طريقى إلى عش الزنابير!!

الفصل الرابع

لم تكن "الأحراش" التى تحيط بالسور الخارجى أو البيوت الطينية الواطئة، توحى بأى أثر لقصر أو حتى حظيرة، لكن ما إن خطوت عدة خطوات، حتى أدركت أننى فى قصر حقيقى، قصر منيف، متعدد الحدائق لا يبنى إلا على جبال سويسرا، أو بحيرات هولندا، ولا يسكنه إلا بارون، أو برنس!

فهل هذا بالفعل هو قصر شكرى السباعى؟

شكرى الذى كان يجلس بجوارى؟!

وهل لايزال على قيد الحياة؟

وإن كان كذلك فلم لا يخف لاستقبالى؟

ترى هل يذكرنى بعد كل هذه السنين؟!

كان السايس يسبقنى بعدة خطوات، يحرص على ألا تزيد أو تنقص، وهو يخب فى ثياب ثقيلة ضاجة تحميه من المطر، ويتلفع بعباءة صوفية تغطى رأسه، وتتدلى على جسمه الفارع .. كان حريصا على ألا أرى وجهه، ولكنى استطعت أن ألمح عرجا خفيفا فى ساقه اليسرى، ما لبث أن وضح وقعه المعدنى على الدرج الناعم.

وفيما كنا نقطع المشى الحجرى المحاط بالزهور والأضواء الخافتة، سمعت صرخة جديدة لا تقل فزعا واستجارة، فتجمدت فى مكانى، لكن الأعرج واصل تقدمه الآلى بتلقائية شككتنى فى مصادر إدراكى.

وحين أردت أن أتيقن مما سمعت، لم يفدنى بإجابة، فتوقفت عن إثارة الأسئلة التى لا تأتى إجاباتها إلاَّ بالشقاء والتعاسة، وما أن قادنى إلى صالة القصر الممتدة بأعمدتها الرخامية المصقولة، ومقاعدها الأبنوسية الوثيرة، ولوحاتها الأصلية التى توحى بعز غابر، حتى أشار لى بالجلوس فجلست ، وحاولت أن أرى وجهه الغامض، لكنه غادرنى بسرعة إلى صالة معتمة، تحيطها ستائر بنية ثقيلة، وقبل أن أقوم لأشغل وقتى برؤية بعض "الكونصولات" والتحف العريقة ، سمعت من يقف خلفى ويسألنى بجفاء واضح عن سبب زيارتى.. وعمن أريد بالضبط؟!

كان الصوت خليطا من الأنوثة والذكورة، لكنه بكل تأكيد لم يكن صوت شكرى الذى أذكره أو أتوقعه، وحين استدرت لأرى محدثى، وجدته يحدثنى من خلف ستار سميك، وعتمة كابية فشرحت بعضاً مما أريد، وأوجزت مطلبى فى كلمات قليلة، مشيراً إلى أننى لا أريد أكثر من رؤية زميلى القديم شكرى السباعى. والسؤال عن أحواله ، وعما فعلت به الأيام.. ثم أعود من حيث أتيت!!

وحين أردت أن أزيح الستار لأرى محدثى، منعنى الأعرج بإشارة ناهية، تنطوى على وعيد قاطع، وتحذير لن يتكرر!

ويبدو أن الأمر لم يقنعهم وبدا وكأنه يقول متهكما:

إلعب غيرها..فليس كل من عرف شخصا ذات يوم، يزوره بهذه الطريقة البوليسية اللزجة، فى عصر بات فيه الناس يحسبونها بالجرام، بعد أن كانوا يحسبونها بالطن!!

وبدا موقفى أشبه بنكتة ، نكتة "بايخة" و"ملتوته" يصعب أن يصدقها طفل!!

ومع ذلك لا مانع... إذا كان الأمر - حتى بفرض صحته - يمكن أن ينتهى بانتهاء الزيارة من رؤيته ؟!

ولكن: على من يبحث عن العسل ، أن يحتمل لسع النحل! ثم جاءت (اللسعة الأولى) حين سمعت صراخا يقترب، وزجاجا يتحطم، ومعادن تتدحرج، وأوامر بالهروب أو الانبطاح !!

ورأيت رجلاً يلبس كابا مذهبا ، وسترة عسكرية على جلباب كاروهات، ويتمترس على مقعد متحرك، وهو يدفعه بعصبية لافتة، ويحتمى خلف عدة أوان مطبخية ضاجة ، من عدو لا يراه سواه!!

- إنت مش سامع الكلام؟.. قوم وانبطح!

وأشار نحوى آمراً ، فلم أمتثل لأمره !!

- خلى عندك دم وقوم انبطح.. دى أوامر عسكرية!!

وقبل أن أمعن فيه البصر، أتى من دفعه بمقعده، وأدخله فى ردهة معتمة، فيما كانت شمس الشروق توشك أن تبعث ضوءها الأول..

وبفعل عفوى محض، وجدتنى أفتح حقيبتى وأتأمل الصورة من جديد .. وأقارن بين الأصل والصورة.. ترى من يكون ذلك الرجل الذى يزحف على عجلات، ويتمنطق بأوانى المطبخ؟ لايمكن أن يكون شكرى، فلاتوجد فى رأسه شعرة سوداء، ما أذكره الآن وأستطيع أن أقسم عليه أن شكرى كان لم يصب فى ساقيه، حتى يجلس على عجلات.

- أية خدمة يا أستاذ؟!

كان هو نفس الصوت، الذى يجمع بين الأنوثة والذكورة. فوجدتنى أهب واقفاً متفحصا.لأجدها طويلة، وبالغة الجهامة!!

- خلاص ..شفت شكرى ؟!

- هو فين؟

هكذا تساءلت، فأشارت للجالس على الكرسى ، ثم أشارت لأحد الرجلين الواقفين خلفى قائلة:

ـ وصله للبوابة يا عبد الفضيل.. شرفتنا يا أستاذ.

فتقدم عبد الفضيل، وشدنى من ذراعى الصناعية، وحين قاومته جذبها بعنف فانخلعت فى يده.

كان رد الفعل مفاجئا لهم، إذ صرخت السيدة ذات الصوت المعدنى المختلط، وسقط وشاحها كاشفا عن بقايا أنوثة غابرة، فيما وقف عبدالفضيل متحجراً من هول ما رأى، وهو على استعداد لأن يقسم .لأى مخلوق. أنه لم يكن يقصد!!

أما الرجل الثانى فقد أخفى وجهه أسفاً.

كان الأمر بالنسبة لى معتاداً ومألوفا. إذ تعودت أن أخلعها قبل أن أنام، وكثيراً ماكنت أظنها تاجاً فوق رأسى، ولكن ما تقدره شىء.. ومايمكن أن يقدره الله شئ آخر.

ـ احنا آسفين يا أستاذ..ماكناش نعرف !!

وبأمر حاسم باتر، نادت على "التمرجية" فأتت مسرعة، وفى يدها حقنة مهدئة كانت تعطيها لشخص ما، وقد توجها الدم!

ـ خد الحقنة يافتحية؟

ـ أيوه يا هانم.

ويبدو أنها شعرت بحاجة للتكفير عن ذنبها، فأمرتها بمرافقتى إلى الجناح الجنوبى.. وأشارت لها بإشارات غامضة، فقادتنى فتحية نحو الجنوب، ومازالت الحقنة مرفوعة فى يدها، وقد تعقبنا السائس الجهيم بثيابه الثقيلة عبر الطرقات المعتمة، فنزلنا درجات وصعدنا درجات.

ثم انعطفنا يميناً ويساراً، وقد تناغمت خطواتنا على الرخام الزلق، وبدا لى أننا نجوس فى فناء كنيسة قوطية تنتمى للعصور الوسطى، وقبل منتهاها توقف السائس على جانب ، وكأن هذه هى آخر حدوده ، فيما واصلت الممرضة طريقها وهى تأمرنى بالمثول، فتتعاقب خطواتنا المنتظمة عبر الردهات الممتدة، وكأننا نرقص رقصة تانجو، على رخام مشرحة مستشفى حربى!!

ولكى أشغل نفسى عما يوترنى، رحت أستعرض الأبليكات والتحف التى غطاها التراب ونسجت العناكب خيوطها الرمادية عليها ، فيما تناثرت الفوتيهات الباريسية محطمة، على الجانبين، حتى تبدأ مخازن التبن، واسطبلات الخيول ومفارخ الدواجن، وهناك وجدت شخصاً وديعا يجلس فى قفص حديدى مغلق ، بدا لى من بعيد، أنه فقد كل قدرة على المقاومة!!

وحين فكرت فى التراجع، استحثتنى الممرضة الجامدة الوجه، بعينيها الحياديتين والحاسمتين فى آن، فأغلقتا فى وجهى كل منافذ الفرار.

وبثقةٍ لا تتاح لكل البشر، تقدمتنى الممرضة ، دون أن تنظر خلفها، وكأنها تسحب فريسة من أنفها، فتتابعت خطواتنا من جديد، وبدا لى من صدى هذه الخطوات المنتظمة..أنها ستنتهى بنا إلى حبل المشنقة!!

فمن حولنا كان ثمة تليفونات ترن، وفئران تفر، وساعات حائطٍ تتحرك برتابة قاتلة، كأنها توازن بين الحياة والموت.

وحين فكرت – مجرد تفكير– أن أرد على التليفون، رشقتنى الممرضة بنظرة دامية، وكأننى تلميذ جديد فى حضانتها..

ثم جاءت الصدمة الكبرى، حين نزلت عدة درجات، وفتحت بابا حديدياً ضخماً، فترددت برهة، لكنها تقدمتنى بشجاعة تحسد عليها، وكأنها تسألنى: ألست رجلاً؟!

ثم أغلقت الباب خلفنا بحسم المنتصر، ففكرت أن أهرب، لكنها سدت فى وجهى كل المنافذ ، فلم أجد أى معنى لأى حوار، ولا أظن أنها كانت تملك القدرة على أن ترد على أى سؤال!! فتبعتها مستسلما لتلك الرائحة العطنة، والرطوبة البدرومية الخانقة.. وأنا آمل أن تنقشع الغمة، أو يسرع عزرائيل بخنقى، لكن الممرضة قلبت توقعاتى حين فتحت بابا يفضى إلى غرفة واسعة، مسيجة بالحديد، ودعتنى للدخول بإشارة آمرة إلى حيث ترقد جثة مغطاة ببشكير، على سرير قديم ضاعفت العتمة من كآبته، وما إن أغلقت الباب خلفها وتركتنى وحدى، حتى رميت حقيبتى، وجريت خلفها مرتعباً.

ـ أنت يا آنسة.. أنت يا مدام.. رايحة فين؟

وقبل أن أدركها فيما يشبه الرجاء، كانت قد خرجت وأغلقت الباب خلفها.

وما كدت التفت خلفى، وقد ملأنى الرعب، حتى تحركت الجثة الساجية، وحاولت أن تقوم، فشل الفزع لسانى، وقيد الخوف حركتى، وبحركة قاتلة اقتربت الجثة بهدوء الذئب الجائع وهى تهمهم وتغمغم ، وتحاول الاقتراب بإصرار مقيت ، فضاعفت من رعبى كأنها ثعبان أناكوندا ضخم التف حول عنقى.. !!

الفصل الخامس

لم تتوقع المرضة أن أدركها بهذه السرعة، وأجذبها بهذا العنف ،لاعناً من تبقى من أهلها، دون أن تلتفت إليّ ، وماكدت أذكر اسم أمها، حتى استدارت فجأة ورشقتنى بنظرة ساحقة، أوقفت الكلمات فى فمى!

كانت عيناها حمراوين، وممتلئتين بدكنةٍ دامية، وفيما كانت تحرك الحقنة فى يدها، خيل إلى أنها يمكن أن تغرسها فى عينى، لكنها خالفت ظنى، وسبقتنى إلى الغرفة المعتمة التى تشبه المشرحة!!

وبثبات فى العزيمة، وبرود لايحتمل، دنت من الجثة، ثم أخذت لنفسها مكاناً تجلس عليه، وببجاحة القاتل الأجير، همست بارتياب: أستاذ شكرى.. فيه ضيوف علشانك!!

ولم أر حركة ، فسمعتها تكرر:

ـ أستاذ شكرى.. أستاذ شكرى.. فيه ضيف عشانك!

ولدهشتى رأيت الجثة تتحرك، وكأن الروح قد عادت إليها.. ثم رأيتها تجلس على سريرها الذى يشبه اللحد، وسمعت المرضة تدعونى للجلوس، وتقدم مقعدا بجوار الجثة. فوجدتنى أتراجع ، وتداهمنى مخاوف الطفولة، وفيما كنت آخذ مكانى على المقعد الحديدى ،حتى غادرتنى المرضة، وأغلقت الباب خلفها. فثبت عينى على كل حركة مفاجئة، ولم يعد يعنينى أى شئ آخر، وما إن تحركت الجثة من مكانها حتى أصابنى الشلل، ولم تهدنى الحيلة لمكان أهرب إليه، وبدهشة مربكة، سمعت الجثة ترحب بى، وتعتدل، ثم

رأيتها تمد يدها لتصافحنى، فشعرت بالعظام خشبية ومتكلسة بين أصابعى المرتجفة!!

- إنت مين؟

قالها وكأنه منوم ، ثم حاول أن يعتدل، فبانت ملامحه لأول مرة، شاحبة، وبدت عيناه ممتلئتين بحزن غريب وتعاسة فادحة!

فمن يكون ذلك الساجى أمامى؟!..

- إنت اللى مين؟

وقبل أن يجيب، دخلت الممرضة والسائس المريب، وكأنهما يعملان بالزنبرك، وصاحا فى صوتٍ واحد:

- خلاص يا أستاذ؟

- خلاص إيه؟.. فين شكرى السباعى؟

- عاوزين ننضف القصر.

- أنا شكرى السباعى.

- تنضفوه منى ولا من إيه؟

- دى أوامر الست هانم.

- أنا شكرى..

- وحضرتك تبقى مين؟

- الزيارة انتهت يا أستاذ.

- أنا عبد الحميد الدومانى يا شكرى.. عبد الحميد الدومانى.

- امشى يا بت انتى وهو.. سيبونى مع الراجل.. عبد الحميد الدومانى؟.. عبد الحميد الدومانى؟

- الست هانم حتزعل يا شكرى بيه!

- زميلك فى جبهة السويس يا شكرى!!

- السويس؟ الدومانى؟ الدومانى؟

- أنا اللى شلتك لما الرصاصة جت فى راسك.. وبعد يومين حصل اللى حصل.

- حصل إيه؟

- حصل اللى حصل يا شكرى.

وقبل أن تخنقنى الدموع، فتحت حقيبتى، وأخرجت الصورة، وفيما كنت أقدمها ليتذكرنى، هالنى الفرق بين الحال والمآل.

- فعلا دى صورتى.. لكن مين اللى ورايا ده؟

- ده المقدم أيمن البحراوى.

- لسه عايش؟

- .... أستشهد فى الثغرة.

- واللى جنبى ده؟

دا الرقيب فتحى وهدان.

- استشهد راخر؟

- قالوا إنه أُسر ومات فى الأسر.

- وده؟

- الرائد سعيد البطران.

- لسه عايش؟

- تعيش أنت.

- و....

- أنا

- أنت؟.. ياه.. كنت صغير قوى.

- قوى

- وأنا كمان كنت صغير.

- قوى.. قوى!!

- لكن جبت الصورة دى منين؟ وازاى؟

- مش عارف!!

- ومين اللى صورها؟

- مش عارف!!

قلبها على ظهرها فلم يستطع قراءة الأسماء فهتف:

- تسمح لى أنسخها.

- خدها كلها.

- كلها.

- كلها.

ضمها إلى صدره بفرح طفولى، قبل أن تدخل السيدة المتعجرفة وتتعجل مغادرتى.

وبدلاً من أن تقدم القهوة، أو تدعونى للجلوس على صدر المائدة، صاحت وبحدة وكأنها مأمور سجن ، تأمر ضحاياها:

- مش قالوا الزيارة انتهت؟

وقبل أن أعد إجابتى، صاح شكرى فيها معاتباً.

- أميرة.. عيب كده.. ده ضيفى.

ثم تبسم متحرجاً، وهو يعرّفنى بها:

- أختى أميرة.. الأستاذ...

ووجد صعوبة فى تذكر اسمى فبادرت مذكراً به:

- عبد الحميد الدومانى..

- الأستاذ عبد الحميد الدومانى.. زميل سابق.

- وضيف لحد امتى؟!

- وبعدين يا أميرة؟

- كفاية كده ياأميرة .. الفطار لو سمحتى.

ثم نظر نحوى بأسف، وقال إنها تحب الهزار . وفيما كانت تغادر المكان، طلب شكرى أن اقترب بمقعدى وأعرب عن أسفه موضحا أنها أخته الوحيدة، بعد أن مات أخوه المريض، لكن العنوسة سحقتها وكرهتها فى كل الرجال ، ثم طلب أن أنتظر حتى يغير ملابسه، وبعد دقائق لبس ملابس الفرسان، فبدا كنبيل من نبلاء الأربعينيات. ناعم الحركات رقيق القسمات ، يحسب كل كلمة يقولها ، وكل حركة يفعلها ، لكن هذا كله لم يخف انكسار عينيه، وثقل ما يحمله على منكبيه من هموم!!

- اتفضل يا عبدالحميد بيه.. الفطار.

وقادنى إلى غرفة طعام تشبه فى فخامتها صالا . بالقرون الوسطى. ثم جلس على صدر المائدة ، وتأمل صورته من جديد وهتف بروح طفل فاز بلعبة جديدة :

- صورتى بالفعل..

وشكرنى من جديد، وأكد أنها صورة قديمة نعم ، لكنها تنطوى على ذكريات لاتنسى!!

وحينذاك دخلت المرضة والسفرجى، ووضعا الأطباق الأخيرة على المائدة، وبدا لى أنهما كانا يستمعان إلى ما نقول، لأن المرضة سألتنى وهى ترشقنى بنظرة ، ذكرتنى بريا وسكينة، إن كنت أريدها سادة أم باللبن الحليب !!

– هى إيه دى؟

– القهوة !!

شكرتها معتذراً فغضبت، وداخلنى شعور بأنها تود أن تسممنى، أو ترمينى فى بئر لا قرار له.. كانت تتصف بنفس الحدة والدمامة ، التى كانت تتصف بهما ريا وسكينة.

ومع أن الجوع كان يعصف بأحشائى، إلاَّ أن الخوف من الخادمين منعنى من أكل ما أحب، فتناولت المضمون بتوجس لفت نظر السفرجى ، وهو يرانى آخذ: بيضة مسلوقة، مربى لم تفتح بعد، شرائح جبن مغلفة، وعصائر محفوظة!!

– لكن إيه اللى فكرك بينا ياعبد الحميد بيه؟!

هكذا سألنى شكرى قبل أن يأمر خادميه بإعداد الجناح البحرى، بكل ما يليق بضيف كريم.

فسألته مستدركاً:

– لكن إيه العز دا يا شكرى بيه؟ مقلتليش يعنى إن عندك عزبة!!

– عز؟..عز أيه يا عبد الحميد بيه ؟ العز دا كان زمان!!

- ماكنتش بتقول لحد أنك ..

- وهو كل اللى عنده عزبة لازم يعمل إعلان فى الجرايد؟

- ما أقصدش.. لكن..

- ماتنساش ياعبد الحميد بيه إن والدى كان وكيل وزارة الرى.. وكان باشا .. ومع ذلك تعاون مع ضباط الثورة.. لحد ما غضبوا عليه، لكنه كان أذكى منهم كلهم!!

- إزاى؟

- وزع أمواله وممتلكاته علينا، فملقوش حاجة يصادروها..

أو يفرضوا عليها الحراسة!

- قصدك وزعها توزيع صورى؟

- ياعزيزى فيه عشرين حل لكل مشكلة .. وعادة لا يعرف خصمك أكثر من نصهم!!

- لأنه غبى؟!

- لأنه مغرور.. والمغرور عادة بيحيِّد عقله.. ويشغل وجدانه!!

تطلعت لصور الجدران من حولى، فلاحظت صلبانا، وصوراً لقديسين.

- أنت مسيحى يا شكرى؟

- أول مرة تعرف؟

- آه.

- وده يخليك تغير رأيك؟!

- بالعكس.. ده دلالة على وحدتنا.

- شكرى ونيس الشرقاوى.

- أنعم وأكرم.

- إلا قول لى.. مش أنت الملازم اللى كان غاوى رسم؟

-تصوير

- اللى كان عارف السويس حتة حتة؟

- بالضبط!

- ولسه غاوى؟!

- تقريبا!

- صحيح.. الدنيا ضيقة!!

الفصل السادس

كنت قد قررت الرحيل، بعد أن انتهت مهمتى، ولم يعد بإمكانى أن أحتمل أكثر من ذلك.. وقبل أن يحل المساء أخذت حقيبتى، وعزمت على الرحيل، لكن شكرى رفض مغادرتى، وتمسك بوجودى كما يتمسك الطفل بحضن أمه!

وحتى يضمن بقائى، أمر الخدم بإخفاء حقيبتى، وبدا لى أن كل أعذارى لن تقنعه.. فراح يذكرنى بجمال الريف وهدوئه، وصعوبة الطريق، ومد الترع والمصارف.

وكان الجناح الذى أعدوه لإقامتى فاخرا بالفعل، فاغتسلت ونمت قليلا، حتى بعث شكرى من يطالبنى بمرافقته إلى الحديقة، وهناك هالنى اتساعها وجمال أركانها وخضرتها . ولاحظت أن السائس الجهيم كان يراقبنا من بعيد، وقد تخلص من ملابسه البلاستيكية التى تشبه القماش الذى يضعونه على البغال، ويبدو أنه تخلص من حذره، لأننى استطعت أن ألمح عينيه المتخاصمتين ، ونابيه اللذان يشبهان نابى دراكولا.. عرفت بعد ذلك أنه لايسمع ، وأنه أصيب بخرس مفاجئ حين مات ابنه الكبير فى الحرب الأخيرة !!

وعند النافورة التى تشبه الشلال ، طلب شكرى من السايس أن يأتى بحصانين، وقدم واحداً فرفضته على الفور، وأكدت أننى لم يسبق لى أن ركبت حصانا، لكن يبدو أن هذا كان سببا لإصراره، وحين أبديت خشيتى من السقوط ، طمأننى وقال إننا لا نؤذى أحداً.

وحين ركبت الحصان، ظل يتواثب ويتخايل، وكلما حاولت أن أضبط توازنى، أو أخفف من رعونته ، قذفنى لأعلى، وشتت انتباهى!!

ـ سيب نفسك... كل ما تتعصب، كل ما تكون عرضة للسقوط.. خليك ريلكس!!

وجاءت النجدة قبل أن يحل المساء، وتمتلئ السماء بالسحب .. ما أذكره أنهم تكالبوا عليه – فجأة– كالنمور الجائعة، ورأيت من يسحب حصانه إلى القصر، ومن ينزله ويقيده من الخلف.. ومن يصرخ ليفسحوا الطريق، وأنا رابض على الحصان مبهوتاً وكأننى أنتظر من يأسرنى، أو يأمرنى بالنزول!

وحين حاولت أن أجمع شتات فكرى، كانت الساحة قد خلت تماما من كل أثر لهم، وفى لحظة أمل ورجاء، تمنيت أن يكون ما حدث محض حلم أو كابوس، لكن الشواهد خيبت ظنى..

فلم يعد أمامى إلا أن أعرف الحقيقة... كل الحقيقة!!

الفصل السابع

كنت قد تركت الحصان جانبا، ونزلت إلى القصر، فلم أجد مخلوقا فى ردهاته المظلمة. فبحثت فى طرقاته الممتدة عن أى أثر لكائن لكنى لم أجد سوى أبوابا كثيرة تصفقها الرياح وتفتحها فأخذت أصيح مناديا على من يرد، وفى قلبى رجفة حسيرة، وكلما رأيت بابا مغلقا طرقته وانتظرت منادياً:

ـ شكرى يا سباعى.. رحت فين يا شكرى؟

وحين لا تأتى إجابة أفتحه بحذر فلا أجد سوى رجع الصدى.

وفى كل غرفة كنت أشم رائحة جديدة، وأرى فى عتمتها المرعبة أشلاء وكراكيب حاجات، تهشمت أو تعفنت بمرور الزمن.

ـ يا جماعة ياللى هنا.. هنا.. هنا..هنا..

وفيما كان الصدى يأتينى من كل غرفة أفتحها ، شعرت بخوف لم أشعر به حتى وأنا فى خنادق القتال، والطائرات من فوقنا تلقى علينا بكل ما تستطيع!!

كان العدو واضحا ومعلوما.. وكنا نعرف إمكانياته، وحدود حركاته ، وها أنا ذا بعد أن هزمتنى الليالى، وأرهقتنى السنون، أقف وحيداً على مفترق، وأمامى عدو مراوغ لا تخزيه خططى، ولا يجديه حوارى!!

– رد عليّ يا شكرى .. رى.. رى.. رى!!

وبسرعة لم أعهدها فى نفسى، صعدت إلى الدور الثانى، وناديت على من يرد، وبضغطة أخيرة على زر الكهرباء أضاء النور طرقات الطابق

العلوى.. فهربت فئران، وطارت وطاويط، وشعرت بخنافس مقززة تنسحق تحت قدميَّ، وصراصير نزقة تسعى إلى ساقى.

ـ شكرى يا سباعى.. عى.. عيّ..إنت فين يا شكرى .. رى..ري

وكلما عاودت الصياح هربت عصافير ، وفزعت زواحف، وسمعت صفير رياح واهتزاز أباليك،

وحين حاولت أن أفتح البلكونة لأستنجد بالخفير الذى ينام فى عشته البعيدة، رأيت كلابا شرسة تكاد تأكلنى، فأغلقت الزجاج حتى خفتت أصواتها، واختفت أنيابها، وشعرت بالهواء المشبع بالصمت والهجران ، ثقيلا على وجهى، فهربت من ذلك المكان المريب، وسعيت إلى طرقات أخرى فهبطت وصعدت، ونجحت فى إضاءة بعضها وفشلت فى أخرى، وتنقلت بين الضوء والظلام، فتدرجت الألوان والظلال على الحوائط وشعرت ببعض الصور المعلقة تغمز لى بعينيها أو تخرج لسانها، وخيل إلى أن بعضها قد خرجت من إطارها، ودخلت غرفة بعيدة، فسعيت خلفها ولكنى لم أجد شيئاً.

سعيت إلى المطبخ، وأعددت كوبا من القهوة، وما كدت أجلس وأتناول الرشفة الأولى، حتى سمعت صرخة جديدة أكثر ألما وشكاية، فتركت الكوب، وهمت على وجهى فى الطرقات المظلمة، والردهات المضيئة. وحين هدنى التعب، عدت إلى الكوب فلم أجده. وحتى لا يشت عقلى ويدركنى الخبل، شحنت عزيمتى فامتلأ قلبى بالتحدى، وعقلى بالمقاومة، ورأيتنى أبحث فى كل أرجاء المطبخ عن الكوب مستعينا بشمعة صغيرة مهتزة، حتى وجدته مكسورا بجوار القمامة، وقد تلوث بدم، ووجدت تفاحة كبيرة مقضومة بقواطع تشبه قواطع الدب، فجريت هائما حتى وصلت إلى الصالة المضاءة.

وهناك عرفت أن لكل شيء فى هذه الحياة حدوده، وأن غريزة البقاء أقوى من الوصول لما نسميه بالشجاعة!

- شكرى يا سباعى.. عى.. عى..!!

ناديت يأسا وقد هدنى التعب، لكنى شعرت لأول مرة بأننى لا أصيح فيه لأنقذه، لكنى أصيح لينقذني!! وتذكرت يوم إصابتى، وكيف نقلتنى الإسعاف عبر الطرق الترابية المهجورة والذهول يخرسنى وأسمع الطائرات تطن من فوقى، والدبابات من حولى وأشعر بأن علىَّ أن أكون فكنت..

وفى المستشفى سمعت من يهنئنى بالسلامة، وشعرت بألم ساحق فى ساقى، وخفة فى ذراعى، وتذكرت ما حدث فانفطر قلبى، وحين صرخت، وحاولت أن أقوم، منعونى بلطف، وخدرونى بحقنة حرمتنى من الكوابيس، وسحبت الأمطار من عيني!

- شكرى يا سباعى.. عى.. عى..؟!

أصيح فتفزع حمامات، وتتطاير وطاويط.. وتمتلئ الدنيا بالرماد فأنبطح، وأرى على البعد البعيد نسوراً تحوم حولى، وسحابات تظلل جثث، لأناس كانوا قبل لحظات يحتضنون الدنيا، ويحلمون بالرجاء!

- أنت فين يا سباعى.. عى.. عى..!!

وتذكرت جناحه الأرضى، فتعكزت إليه، وفيما كانت رائحة العطن والرطوبة تعبقان المكان، تحسست طريقى فى ذلك الظلام اللحدى المقيم، وكأننى أجوس بين المقابر، وبنفس مفعمة بالرعب، حاولت أن أضيئ البدروم، لكنى لمست أسلاكا عارية، فسمعت انفجاراً مرعباً أسقط شمعتى، وتغشى عينى، وأسقطنى على ظهرى!

وحين نجحت فى إيقاد الشمعة، ووجدت السلكين الصالحين، أضيئت القاعة الممتدة بلمبة صغيرة ، استطعت فى غبشتها أن أرى كل ماحولى:

الصور المائلة، والسرير الخالى، والستائر التى تطوحها الرياح والصمت الذى ينذر بكارثة. وفيما كنت أتفقد المكان بحثا عن أى دليل، رأيت خيطاً من الدم ، يقودنى إلى سرداب منخفض، ماكدت أدخله حتى انقطعت الكهرباء، فدفعتنى غريزة البقاء للفرار، ورأيتنى أسعى مرتعباً إلى المطبخ العلوى، وأسحب سكينا فى حجم ذراع ، وقد أهانتنى الهزيمة، وداهمنى الإصرار، فسمعتنى أقول :يا قاتل.. يا مقتول!!

الفصل الثامن

كان قطار الفجر يعبر مزلقانه البعيد، حينما أتانى صوت الكروان الليلى، مصحوباً بصرخةٍ بشريةٍ مندغمة أقرب إلى خوار البقر، منها إلى زئير الأسد. صرخة أخيرة مستنجدة لرجل تجز رأسه، أو وجد نصف فرصة للصراخ قبل أن يختنق.

وبنصف وعى، وربع شجاعة، وجدتنى أسعى إلى هناك، قبل أن ينتهى أجله، ولم يعد يرعبنى صوت النوافذ البعيدة، التى تفتح وتغلق، ولا الشرفات التى تضربها البروق والأمطار، وعلى كل طرقةٍ كنت أصيح مغتاظاً:يا كلاب..

فيعود الصدى مرعباً: لاب.. لاب.. لاب!!

وقبل أن يدركنى الانهيار صعدت إلى الطابق الثانى، وفتحت كل الأبواب الممكنة، فصاحت ديوك، وصوصوت كتاكيت وتصادمت خنازير، واختلط الضوء بالظلام، والصمت بالضجيج، وكأننى دخلت سفينة نوح!

وفى ردهة واسعة وجدت هاتفاً فاتصلت بالنجدة على الفور:

- مين حضرتك؟

- أنا.. أنا عبد الحميد الدومانى..

- بتتكلم منين حضرتك؟

- بتكلم من قصر شكرى السباعى - بعزبة السباعية.

- تبع إيه السباعية دى؟.. تقسيم إيه؟..

- مش عارف!

- طب رقم التليفون كام؟

- مش عارف!

- طب إيه الحكاية؟ إيه الموضوع؟!

- فيه جريمة قتل بتحصل دلوقتى!

- ممكن تهدى شوية وتقوللى مين القاتل ومين القتيل؟

- هو أنا لسه حأحكى؟ اتصرف ياأخى.. ابعت النجدة!!

- ماشى.. أبعتها فين؟ وتوصل لمين؟ محافظة إيه؟

- محافظة الشرقية

وقبل أن أكمل جملتى كان الخط قد فصل، ولمحت شبحاً يختفى فى خلف الستائر المسدلة، فرميت السماعة، وسعيت فى إثره. وقد خنقنى الغيظ، وأعمتنى المفاجأة. وحين وصلت إلى هناك لم أجد أحداً، فحطمت كل ما وجدته أمامى، وقد أدركت أن هناك من يلاعبنى، ويسخر منى !!

وماكدت ألتقط أنفاسى، حتى لمحته يظهر من جديد ويعبر الطرقة إلى البدروم ، فصحت من فورى، وكأننى ألقى بقنبلة:

- استنى عندك!!

وأسرعت متعكزاً فى إثره ، لكنه اختفى فى ظلام المكان !

كان طويلا بصورة مرعبة، وبدت خطواته واسعة، وقد تسربل فى قماش أبيض طويل ، كأنه جثة تعود لقبرها ، فوجدتنى أتبعه وأمعن فى العناد.. ووجدتنى أشق الظلام بعزم لم أعهده فى نفسى، فأى فخ هذا الذى دخلته بإرادتى؟

أى "عش دبابير" هذا.. الذى وضعت فيه يدى؟

ولمن أضحى بسلامتى، وأراهن بحياتى؟!

وفى غمرة الإحساس باليأس، بدت بعض الصور المعلقة على الحوائط قد غيرت مواقعها، وتحركت بعض التماثيل عن أماكنها، ولما أمعنت فى ذلك، شعرت بحاجتى للنوم العميق،

وما كدت أغلق الباب خلفى، حتى سمعت صرخة جديدة، لمخلوق يائس ، ربما كان يلعن نذالتى، ويرثى لحالى ومآلى!

ثم جاءت الصدمة الكبرى حينما شعرت بالأرض تميد تحت قدمى، ورأيت- فيما يشبه الحلم- كائنات هلامية لزجة تعبر جسدى، وتسرع بالفرار، فتحرر عقلى من لزوجة الجسد..

وبدوت أطير كفراشةٍ حمقاء... تسعى نحو حتفها !!

الفصل التاسع

أيقظنى صوت الفجر التالى، مترافقا مع عواء ذئاب بعيدة، وعراك قطط لا تمل، فتذكرت ضوارى الجبل وهى تنهش رفات زملائى. وحين استعدت وعيى وشتات ذاكرتى، نهضت عن الأرض، ورحت أبحث عن خنجرى فى الظلام، بعد أن تأكد لى أن ما حدث لم يكن محض حلم أو كابوس، لكنه واقع مر وشرير علىّ أن أواجهه بمفردى!

وحين وجدته وقفت متعثراً، وبخطوات وئيدة متعسرة، وحين تأكدت من المؤامرة، سعيت إلى الطابق العلوى، وهناك أيقنت أن الكهرباء قد قطعت بفعل فاعل، فعدت بشمعة مشتعلة وبشجاعة لم أعهدها فى نفسى، رفعت غطاء النفق ، فداهمتنى رائحة القبور فترددت، لكن قوة ما دفعتنى نحو الأمام، وكأننى مخدر أو ممسوس، وحين هبطت عدة درجات، شعرت باختلاف فى الضغط والأكسجين، ورأيت الشمعة تخفت وتمور، ورأيتنى فى مكان غامض، أشبه ما يكون بكهف غريب، ما كنت أنتهى من مدخله، وأتقدم عدة خطوات، حتى شعرت بمن يشدنى من الخلف، ويخنقنى ، فعم الظلام، فيما كان ذلك الكائن الغريب يسحبنى إلى الخارج ، بيده التى تشبه مخلب الدب، وأنا أنتصب وأرتخى ، أعتدل وأقوم، وحين أدخلنى فى نفق جديد ، كانت قدمى المعدنية قد فصلت، ولم يعد بإمكانى أن أحتفظ بذراعى الصناعية. فشعرت بمهانة لم يسبق لى أن شعرت بها، فلأول مرة فى حياتى أشعر بعجزى وقلة حيلتى !!

- أنت بتدور على مين يا أستاذ؟!

هكذا صاح الصوت الخليط، حين رماني ذلك الكائن الغريب تحت قدميها، فرأيتني أنسى مهانتي وأواجهها بما تبقى من تحدٍ ، ووجدتني أصيح حانقاً:

- فين شكرى يا ست إنتي؟.. عملتوا فيه إيه يا مجرمين؟!

- شكرى مين؟

- شكرى مين؟ مش عارفه شكرى مين؟ اللى قتلتوه يا...

- إحنا قتلنا شكرى؟

- إنتي بتسألينى؟!

- أنت عايز أيه بالضبط..ومين اللى باعتك؟

- مش قبل ما كشف الحقيقة وأدخلكم السجن يا مجانين.

- عندك دليل؟

- الدليل عدم وجود شكرى!!

- أوعى تكون فاكر إنك أحرص على شكرى مننا؟!

- طب فسرى لى غيابه.. دلينى على جثته!

- عاوز تشوف جثته؟ حتشوفها.. بس أنا مش مسئولة عن...

- قديمة..عايزه تفهمينى إن فيه عفاريت و..

- مش حفهمك.. إنت حتشوف بنفسك.. وعموماً أنا بانصحك، وياريت تنسى نصيحتى !!

وأشارت لأحد الخدم:

- وصله يا فرج!!

وفيما كنت أتبع فرج مأخوذاً إلى غرفة بعيدة، لمحت سيارة سوداء تتسلل إلى القصر، وتقف على جانب، فيما دخل الخادم وهو يدفع مقعداً متحركاً يجلس عليه شخص متهالك، ينظر بخوف وبلادة نحو اليمين ونحو الشمال، وقد قيد بالسلاسل إلى المقعد المتحرك:

– هو ده شكرى بيه !!

هكذا قدمه الخادم المريب ومضى، فشعرت بمرض غريب، وبات علىَّ أن أخضع لعلاج مرير

والأهم: أن أشك فيما عرفت، واختبرت، لذلك ما إن رأيت شكرى منهاراً، حتى هززته بعنف وصحت فى وجهه:

ـ كنت فين يا شكرى.. أنا دورت عليك فى كل حته.. كنت فين؟ رد علىّ.. رد.. رد.

ووجدتنى أصفعه على وجهه بحدة ومرارة ، فسقطت نظارته، وشعرت بالناس تتكالب علىّ، وتبعدنى عنه، فيما ظل شكرى يضحك بصوتٍ عالٍ، دون أن تبدو عليه دهشة، أو شعور بالإهانة ، فتكومت على الأرض الباردة، وأجهشت بالبكاء!!

الفصل العاشر

فى الصباح كان علىَّ أن أغادر هذا الوكر اللعين، لذلك جمعت حاجاتى، وبحثت عما يبعدنى عنه..

وفيما كنت أفعل ذلك، داهمنى شعور مرير بالهزيمة، شعور لم أكابده حتى فى الحرب الأخيرة، حين حوصرنا فى السويس وبات علينا أن نختار بين الأسر أو الشهادة!!

وفيما كنت أغادر المكان، حانت منى التفاتة، فوجدتهم يرمقوننى من خلف الستائر، بتلك النظرة الغامضة، الشامتة، التى لا تعطيك أى معنى كامل، ولا ملامح يمكن تأويلها!

عيون معتمة، وبشرة حربائية تتعدد بتعدد الضوء والمزاج ..

أفواه مطبقة، لا تُفتح إلا لتؤيد، أو تستنكر!!

ولأن الأمر لم يعد يعنينى فى شىء، فقد أخذت طريقى إلى الخارج، مكتفيا بما حدث. وغير نادم على شىء!!

وعند البوابة الصدئة، وجدت الخفير يجرى ويفتح الباب، وكأنه يعلم بكل ما جرى ، وحين تأملته بنصف احتقار وربع شماتة، رفع يده معظماً، وناظراً إلى الأرض، وكأنه يعترف بجريمة لم تكن فى حسبانه، كأنه يقول:

- غور يا وش المصائب!!

ولما كان النهار قد نشر ضوءه على كل الحقول، فقد رأيت الطريق الذى خضته قبل يومين واضحاً تحت شمس الصباح، وبات علىّ أن أمشى عدة

كيلو مترات لأصل إلى الطريق السريع ، متبعا ذلك الخط الدقيق الملتوى، الذى صنعته حوافر الدواب على وحل الطريق.

وقبل أن أخوض فى رغامه، وجدتنى أتأمل حالى، وأرتب أوراق أولوياتى، ففى كل مرة كنت أزور فيها زميلاً، كانت المصائب تتوج كل زيارة، إذ كان يتركنى أتكلم عن أحوالى حتى تتضخم لوزى، وفى النهاية يتهمنى بالرومانسية !!

وبمرور الزمن بدأت أفهم أن الرومانسية صفة مقيتة، أقرب للعبط منها للسماحة!

لذا صارحنى أحد المتزوجين ذات دعوة ، أن كل مشاكلى بسيطة، يمكن حلها فى لحظة . قال:

تستطيع أن تأكل الموجود، وتصحو وقتما تشاء، وتسافر أينما شئت، وتقرأ أو تصاحب من تحب، وكلها حريات أتمناها لكل أصدقائى..لكنى لا أحققها لنفسى!!

فهناك – دائماً– قسط للنادى لابد أن يُدفع ، وقسط للسيارة، والنت، والشاليه ومصاريف الأولاد، ومطالب الرؤساء، ورغبة الزوجة فى تغيير كل ما حولها، فإن تمنعت أو تعللت، أعطتك ظهرها، وقفلت التليفون فى وجهك، وبمرور الزمن تزداد مطالبها بازدياد صلعتك، أو بروز كرشك، أو ارتفاع شخيرك.. صدقنى ياعبد الحميد بيه.. المرء عبد حاجاته.. وكلما زادت حاجته زادت عبوديته!!

وفى لحظة طيش فاصلة، قررت أن أتردد على تجمعات العامة كى أكسر عزلتى ، لكنى وجدت صعوبة فى فهمهم، فتركتهم إلى فئات الضباط والمعلمين، فوجدت صعوبة فى التكيف معهم، أو التعامل بمنطقهم.

كنت أشعر بأن ثمة من يتاجر بإصابته، أو يبالغ فى تدينه، أو يتهافت على المنح والعطايا، صارحنى أحدهم ذات مرة ، وهو يلعب البلياردو، ويدخن سيجاراً كوبيا:

- لقد قدمنا للوطن كل شئ، وراهنا بحياتنا.. ويجب أن..

- وهل راهنت بحياتك وحدك؟ وهل أتيح لك الهروب ولم تفعل؟!

- تقصد إيه يا عبد الحميد بيه؟

- ولا حاجة.. يعنى لما الكهربائى يدخل غرفة الضغط العالى لايراهن بحياته من أجل الوطن؟

- والله ده شغله!

- وده شغلك!!

- جرى إيه يا عبد الحميد بيه.. إنت بتقارن عقيد بكهربائى؟

- يا سيادة العقيد إحنا مش "ساموراى" بنحارب بأكلنا.. ولا مرتزقة مستنيين سبايا.. إحنا كنا بندافع عن ذواتنا وأولادنا وحبايبنا لأننا جزء من هذا الوطن.. وامتداد لامتداده !!

- اللى يسمعك بتقول كده.. يقول إنك نجيت من الحرب و..

- الخطر زى الموت ياسعادة العقيد..مالوش قوانين. ممكن يوصلك ولو كنت فى بروجٍ مشيدة، أو.. صالة بلياردو!!

ترك العقيد عصا البلياردو فوق الترابيزة، ومضى غاضباً

فسألت عن حاجتى لهؤلاء الناس؟ وهل أنا حالة خاصة بالفعل، وهل لعزوبيتى، أو لعملى بالصحراء دخل فى ذلك؟

ما أستطيع تأكيده، هو أن خسارتى لكل هذه المعارك قد ترسخ وتعزز، ثم وصل إلى قمته حين جاملت أرملة ضابط بعدة جمل رقيقة، فطاردتنى فى

كل مكان، وحاصرتنى بالتليفونات حتى منتصف الليل، وهى تفح وتسح، وتتدلل وتتصنع، وحين صارحتها بأننى تجاوزت الأربعين، ولا أريد الارتباط بأى مخلوق هددتنى بالفضيحة، ثم حاولت أن تستثيرنى فطالبتنى بممارسة الجنس عبر التليفون فأغلقت الخط فى وجهها.

وكانت آخر محاولات الاندماج، حين صادقت سباكاً أمياً، وسمحت له بزيارتى فى أى وقت ، فرفع الكلفة بيننا، وأتانى ذات ليلة بساقطة فى عمر أمه، وقطعتى حشيش وأفيون، فطردته من شقتى، ومن حياتى!

- عبد الحميد يا دومانى.. استنى يا عبد الحميد.. نظرت خلفى، فوجدت شكرى يجد فى إثرى بحصانه الأبيض الجموح !

- رايح فين يا عبد الحميد.. مر وقت طويل قبل أن أفك عقدة لسانى، وأجد ما أقوله، فهل هذا هو شكرى السباعى بالفعل؟ شكرى العاجز؟ المراوغ ؟ المداهن؟ الذى ملأ قلبى بالرعب؟ وروحى بالألم؟

- ارجع يا عبد الحميد... أنا محتاجلك... أرجوك.

كررها عدة مرات، فيما كان الحصان يدور حولى، وينفث الدخان من منخاريه. ثم نزل واحتضننى معتذراً..

كانت لدىَّ أسئلة كثيرة تدعمها الشكوك والمخاوف.. وكان علىَّ ألاَّ أعود منهزماً، لأمارس حياتى المكرورة من جديد:

فأفتح الباب لبائع اللبن، وبائع الصحف، والزبال، والبواب كل يوم، وفى نفس الساعة ونفس الدقيقة، ثم أسمع صوت شقيقتى عبر المحيطات تقول نفس الكلام، ونفس العروض والمطالب، وأنا أقاوم الزمن.. وأنتظر الموت على سريرى البارد..

أتحسر على حالى حين أرى فى التلفاز من يسعى فى مناكبها، فيتسلق الجبال، ويمشى فوق القمر، ويهيم فى الغابات البكر، أو يصطاد القروش والحيتان. وأنا أتمدد ـ عاجزاً ـ على مقعد وحيد فى شقتى الباردة الكئيبة، لا أجد من يواسينى، أو يؤنس وحدتى..أو يسأل عنى!!

ـ ارجع يا عبد الحميد.. أرجوك!

ـ كفاية كده يا شكرى.

ـ هتعرف كل حاجة.. أرجوك أرجع !!

ثم أخذ حقيبتى ووضع يده على كتفى مواسيا. فعدت مستسلما.. مخدراً مذبوحاً وفى قلبى دموع لا تريد أن تنهمر..

وَهْمٌ لايريد أن ينقضى!!

الفصل الحادى عشر

عند البوابة الصدئة رأيت الخفير يفتحها بجهد لافت ويقف معظما، فملت عليه مويخاً:

ـ باسألك عن النقيب شكرى السباعى تقول معندناش يانمرة ؟

ارتجف الرجل حين اكتشف أن عليه أن يرد، وغمغم مدافعاً عن نفسه ، وهو يتشاغل بغلق البوابة:

ـ دا شكرى بيه.. يا بيه!

ـ شكرى بيه مين يا مغفل؟

ـ وأنا إيش عرفنى يا بيه؟.. أنا أعرف أنه شكرى بيه وبس!!

استعجلنى شكرى وهو يكبح جماح حصانه :

ـ سيبك منه يا عبد الحميد.. دا حمار. ده المفروض يحطوه جنب البهايم.. مش على البوابة!

وفيما كنا نقطع الممر الملتوى إلى القصر الكبير، توقفنا على جانب وطلبت من شكرى أن يصارحنى بالحقيقة، فأنكر علمه بأى شىء!!

ـ اسمع يا شكرى.. أنا طاوعتك ورجعت معاك.. لكن عندى أمل إنك تصارحنى بكل حاجة!

استدار وواجهنى مندهشاً:

ـ أصارحك بإيه بس؟

ـ بالحقيقة.

- طب صارحنى أنت باللى تعرفه!!

- أنا اتهنت عندك يا شكرى .. اتهنت فى بيتك!!

- مين دا اللى أهانك؟ قولى وأنا أقطع رقبته!

وقبل أن أرد، أتى رجل وقور يرتدى بدلة فارس، ويركب حصانا يتراقص بدلال لافت.

- خالى شاكر أرمانيوس.. مهندس زراعى.. عبد الحميد بيه الدومانى.. كان زميلى فى الجيش!

أصابنى التقديم بخيبة أمل.. عبد الحميد "بيه"؟ و..كان زميلى؟

مد الرجل يده وصافحنى بقفازه الأبيض، وهو يرمقنى بطريقة لم تريحنى، ثم تركنا ومارس رياضته. فيما راح شكرى، يحاول أن يعرف حقيقة ما جرى لى. فشرحت بعضاً مما عرفت، وهو يندهش ويتذكر، ويتشكك فى تقديرى للأمور، فأتشكك فى حسن نواياه !

وقبل أن تغرب الشمس فى جبها، أتى رجل قصير مهزار، يسبقه كرشه الكبير، يحمل فى يده حقيبة قديمة ممزقة، حرص على غلقها بإبهامه حتى لايسقط مابها، ونادى على شكرى بعشم لا يليق برتبته، وسأله عن الأحوال، ثم طلب أن يختبر ضغطه وسكره، فمد شكرى ذراعه بقرف، وهو يتشاغل بالنظر نحو السماء.

وفيما كان الطبيب يسرع حتى يلحق بقطار الزقازيق، رأيته يلم حاجاته ويأمر شكرى بمرافقته:

- مش حينفع الكشف هنا.. تعالى!

وتقدمه بعدة خطوات إلى القصر، وشكرى يتبعه مغلوبا على أمره وفيما كنت أنتظر على مقعد بعيد، جانت من شكرى التفاتة منكسرة نحوى، وكأنه يسألنى معاتبا:

ـ مش قادر تخلصنى من الراجل ده؟

وماإن أنهى الرجل مهمته خرج مسرعاً وهو يتعجل الحصان الذى سينقله إلى المحطة ، والخفير الذى سيرافقه، فسعيت إليه وسألته سؤالاً مباشراً :

ـ وحضرتك دكتور فى إيه بالضبط؟

فوجئ الرجل بالسؤال، فترك الحصان جانباً، وتفحصنى من تحت نظارته الطبية السميكة :

– نفسية وعصبية.. أية خدمة؟

– ويتيجى كل أسبوع للأستاذ شكرى؟

– آه.. لكن حضرتك مين ولا مؤاخذة؟

ـ أنا عبد الحميد الدومانى.. صديق الأستاذ شكرى.

ـ وبتشتغل إيه يا أستاذ عبد الحميد؟

ـ كنت رائداً فى القوات المسلحة..و..

ـ رائد؟.. أعوذ بالله.. ربنا يكفينا شركم!

ـ ليه كفا الله الشر؟

ـ معرفش مبحبش الرتب.. يظهر إنها عقدة!!

وضحك بصوت عال، فلم أجد ما يضحكنى..لكنى سألته:

ـ هو عنده إيه يا دكتور؟

ـ دى أسرار يا أستاذنا.. أسرار مهنة!

وحاول أن يركب الحصان، فأوقفته بلطف مؤكداً حسن النوايا:

ـ أنا مش محامى.. ولا وكيل نيابة.. أنا صديق..

– عايز تعرف إيه ياسى صديق؟

– اللى تسمح بيه.

– أحنا حنشحت؟ ودى تهمك كتير؟

– باعتبارى صديق: آه.

– وتكتم السر؟

– أكتمه!!

– شوف يا سيدى.. شكرى بيه مصاب بحالة نادرة من الشيزوفرينيا العضوية ، كان إدلر– زميل يونج وتلميذ فرويد–سمعت عنه؟

– آه

– كان بيسميها بـ "الانفصام الزمكانى" وحاول أن يفهمنى أنها حالة (شرطية) بمعنى أنها رد فعل مرتبط بالزمان والمكان، لأنها مرتبطة بالضوء والمكان، لذلك بتحدث بالليل فقط !!

– واشمعنى بالليل؟

– مقدرش أفتيك..لكن صدقنى لو قلت لك أننا جربنا كل الطرق، لكن يظهر إن اللى بنعمله شىء واللى عايزه ربنا شىء تانى. ومع ذلك ربنا يسهل.

- ودى سببها إيه يا دكتور؟

- يمكن الإصابة القديمة اللى أصيب بها فى الجيش، ويمكن تكون نتيجة لعلاج خاطئ استمر لفترة طويلة.. الله أعلم.

- طيب ناخد بالأسباب؟!

- ما إحنا خدنا بالأسباب.. لكن الحالة وربك الحق ميئوس منها..

- يعنى أيه ؟

- يعنى تقدر تمنع عدوانيته بأنك تكتفه، أو تقفل عليه الباب لحد الصبح.. وربك الشافى!

- وده حل يا دكتور؟

- عندك حل تانى؟... احنا بنختار أخف الضررين!..

- ودا سبب يخليكو تحطوه فى يدروم مظلم ؟

- تقـصـد إيه بإحنا؟ هم اللى حطوه مش أنا.. ولازم تعـرف تداعيات المرض دة إن له ميول انتحارية.. وحصل قبل كده مع شكرى.

- ماشى ..طب والحاجات اللى بتظهر فى القصر بالليل؟

- حاجات إيه؟

- الأشباح.. والجماجم.. والكبايات اللى بتتحرك و..

- اسألنى عن اللى أعرفه بس ياأستاذ . بعد إذنك !!

ونادى على الخفير فسحب الحصان ومضى،

فيما كانت الشمس تحاول أن تقاوم الغروب!

ويحاول الرجل أن يلحق القطار!

الفصل الثانى عشر

كان لابد أن تتأثر علاقتى بشكرى، بعد أن سمعت ما سمعت، وعرفت ما عرفت.

ولكن ماذا عما رأيت بعينى، وشعرت به على جسمى؟

إننى لا أنكر ـ تماما ـ وجود أرواح، أو حتى أشباح، لكن العسكرية علمتنا أن نعرف أن حيل العدو لا تنتهى، والسقوط فى براثنها يعنى أن نساق من أنوفنا كما تساق البقر!..

ونعرف أن نصف درجة على إحداثيات الخريطة يمكن أن تحول قذائفك إلى أعز من تعز، وربع درجة يمكن أن تصيب من تدافع عنهم!!

أمور لا تقبل التسويف، ولا ترضى إلا بالكل!

لذا وجدتنى أعلن الحرب على جهلى.. وأغامر بما أملك..

كانت الخطوة الأولى أن أعرف لماذا يجلس شكرى على مقعد متحرك على الرغم من أنه لم يصب فى ساقيه؟

ولماذا تعاملنى أخته العانس بهذه الجهامة والكراهية، ويصافحنى خاله بهذا الجفاء، ويعاملنى خدمه بهذه الاستراباة؟!

وهل الأشباح والأرواح هذه لعبة مدبرة، أم نذير لشيخوخة مبكرة؟

ـ آسف يا عبد الحميد.. اتأخرت عليك.

وجلس بجوارى ثم طلب من الخادم أن يعد القهوة.

ـ متعرفش حيلة تخلصنى من الطبيب الرذل ده؟

- ليه؟

- مش عارف.. كل ما يشوفنى يقول شعرك حلو.. شعرك حلو.. هو دكتور ولا حلاق؟

- يمكن يكون فيه علاقة بين ده .. واصابتك القديمة!

- إصابة إيه يا عبد الحميد.. أنت هتعمل زيهم؟..

أنا زى الفل.. هم اللى مصابين فى عقولهم. وبصراحة كده..

أنا زهقت من النغمة دى!!

وبعد أن شربنا القهوة، تصفح شكرى ماحوله ، ثم سألنى:

- عبد الحميد.. مش عاوز تقولى حاجة؟

- عن إيه الحاجة دى؟

- عن نفسك.. عن زملائنا.. عن المستقبل. فكرنى بأى حاجة.. أو كلمنى عن نفسك.. عن مشاكلك..عن ..

- قصدك المشاكل التقليدية؟ لا مليش مشاكل تقليدية .. فأنا معاشى كويس.. وعايش لوحدى فى شقة ٢٠٠متر بوسط البلد وقدرت بشكل من الأشكال إنى أتكيف مع العزوبية. لكن المشكلة إن هناك مشكلة..لكن إيه هى؟ وفين؟ متعرفش.

يمكن تكون وجودية ،أو هلامية. لكن هناك مشكلة؟ آه هناك مشكلة .لكن إيه هى بالضبط ؟مفيش غير أسئلة!!

أحيانا أسأل نفسي: مايكونش حياتنا فى الصحراء أثرت على مشاعرنا وصحتنا؟

كفايه إنك تحرم بحكم عملك من تكوين صداقات عميقة ومستقرة، وإنك تفقد أهلك وأحبابك بحكم الموت أو السفر.

– بص ياعبد الحميد ..أنا قريت شوية فى الوجودية، وأقدر أقُول لك نفس الكلام ، وأوصل لك نفس المشاعر ، لكن مشكلتى إنى مش فصيح زيك.

– أنا فصيح ياشكرى؟ ماكنش دا حالى!!

– صدقنى وعموما دى مش مشكلتك لوحدك.. فأنا مثلاً معرفش ألعب شطرنج.. ولا طاولة. ولا عمرى قعدت على قهوة، ولا أعرف الكوتشينة بتكسب إزاى.. وباندهش لما أشوف فى التليفزيون ناس بتجرى ورا كورة.. وناس بره التليفزيون مقسمين أنفسهم لفرق وتكتلات متخاصمة، ولو خيرت بعضهم بين عدو الوطن وعدوه فى الكورة ، لاختار التانى!!

ـ فاكر يا شكرى أيام السويس؟!

ـ طبعا فاكر.. ليه؟

ـ إيه رأيك لو نقعد لنا يومين هناك!

ـ فى السويس؟

ـ آه...

ـ وإيه اللى طلعها فى دماغك فجأة كده؟

ـ تغيير؟

ـ والله فكرة.. بس يعنى إنت كده نقلتنا من الجنة للنار..

طب وحنروح إزاى؟

ـ زى الناس.. نركب لحد هناك.. ونقعد يومين تلاتة فى أى فندق.. أو.. عند أى واحد من صحابنا.

ـ والله فكرة.. وهو بالمرة نغير جو..

وكانت الأشجار من حولنا قد امتلأت بالعصافير الصادحة ، حين سمعته يقول:

ـ ياأخى مش عارف إيه اللى بيعورنى وأنا نايم.. كل يومين تلاتة ألاقى إيدى محزوزة، رأسى مخبوطة .. فيه إيه مش عارف.

ـ مش عارف بجد؟

ـ أعرف منين يا عبد الحميد؟

وبالفراسة عرفت سر القضبان الحديدية التى تقسم البدروم،

وبالفراسة أيضا فهمت سر شكوك أخته وخدمها، وخشونتهم فى معاملتى، بعد أن عرفت بمرض شكرى، وأصبح وجودى يهدد ميراثهم، وصورتهم أمام من كانوا خدماً لدى العائلة!!

لكن ما لم أعرفه قط، هو سر هذه الأشباح الليلية، وهل هى حيلة لإرعابى، أم عرض لمرض أصابنى؟ فهل تكون هذه الأشباح محض أوهام صنعها الإرهاق والفزع؟!

هذا ما يجب أن أعرفه..حتى لو ضحيت بعنقى!!

الفصل الثالث عشر

بعد الغداء استدعتنى الآنسة أميرة إلى مكتبها وسألتنى عن حقيقة ما سمعته من الخدم؟ وهل أنوى بالفعل زيارة السويس؟!

وقبل أن أسألها عن المانع ، صارحتنى بأن شكرى مريض بمرض خاص، ولم يخرج إلى الشارع منذ عاد من الحرب.. وخروجه الآن فيه خطر على حياته، وعلى سمعة العائلة!!

وقبل أن أدافع عن اقتراحى، رجتنى أن أصرف النظر عن الموضوع ، أو أسافر وحدى إن أردت، فهناك اعتبارات كثيرة تمنع شكرى من السفر، لا داعى لشرحها.

وقبل أن أشير إلى... رجتنى - بكبرياء الآمر الناهى - أن أمتثل لنصيحتها، فغادرتها غاضباً دون أن ألقى السلام، وتمنيت أن تكون رجلاً، لأدمى أنفها. وحين سألت نفسى عما فعلت، حتى تعاملنى بهذه الفظاظة لم أجد ما يمكن حصره أو تحديده!!

وقبل أن أنام مكتئباً، سمعت طرقاً صارماً على الباب ففتحت لأجد خالها يبادرنى بالسلام، ويستسمحنى بالدخول !!

كان لطيفا حين اعتذر عما بدر من ابنة أخته، وقبل أن يخلع معطفه الشتوى ويجلس، أكد حقى فى محبتى لشكرى ، رغم أننى مسلم.. وحق شكرى فى أن يصادق من يشاء، أو يفعل مايشاء، لكن لا تنس أنه مريض

بمرض نادر، وعادة ما يمشى وهو نائم، وحتى الآن لايعرف أحد السر فى ذلك، عرضناه على أخصائيين أمريكان وفرنسيين وألمان دون جدوى.

- والمطلوب منى؟

فوجئ الخال بسؤالى، فتريث قليلا قبل أن يقول:

- اعتبره فى حكم المجنون!!

ثم حذرنى من رحلة السويس، ونصحنى بمغادرة هذه العزبة.

غير مطرود. مقابل أى مبلغ أطلبه !!

وقبل أن أفيق من الصدمة، أكد حقى فى ذلك، وقال: اعتبرها هدية ، أو مكافأة على إنقاذى لشكرى !!

ثم قدم شيكاً ممهوراً بتوقيعه، وطلب أن أكتب ما أريد !!

وقبل أن أمزق الشيك وأرميه، كان قد غادرنى غاضباً ، وأغلق الباب خلفه، ثم عاد وصاح مستدركاً:

- فكر بهدوء.. وإحنا فى انتظار ردك؟

ومن صرامة ملامحه وغموض نظراته ، بدا لى أننى لم أر من جبل الثلج سوى قمته.

وحين سعيت للحقيقة، عرفت أن أميرة وحاشيتها ينتمون لطائفة لاهوتية منشقة تسمى "بالمقوقسين"

– نسبة إلى المقوقس حاكم مصر قبل الفتح العربى– وتؤمن بعودته، بعد أن يرحل العرب إلى صحرائهم، وبما أنها تؤمن بالبعث والحلول، وتأمل أن يغفر الله لمن قضوا بذنوبهم ، فهى تجمع رفاتهم فى مكانٍ واحد، علّهم يحرزوا محبة الرب ، فيدخلوا جنته، طبقا لتأويل الأنبا (لوقا الدهان) راعى كنيسة القلب المقدس لإنجيل مرقس، وهو ماكرره اليزيديون فى صدر

الخلافة، حين اختاروا (يزيد بن معاوية) قاتل الحسين ولياً عليهم.. اتقاءً لشره!!

– اسمع يا دومانى.. أنا خلاص قررت أسافر!

ـ تسافر فين؟!

ـ أسافر السويس .. مش دا اقتراحك ؟ ولا رجعت فى كلامك ؟

وحين لاحظ فتور همتى، صاح من فوره:

ـ إيه..غيرت رأيك؟

ـ مش غيرت..لكن..

– لكن إيه ؟ طب إيه رأيك بقى إنى كده كده حسافر!!

– متنساش إنى صاحب الاقتراح!!

– ماهو ده اللى حيجننى..خلاص نسافر بكره..نقعد لنا يومين تلاته..

وبدأت عيناه تجحظان بفرح غريب، وهو يغادرنى ليعد عدته.

كان المطر قد توقف، وحل الظلام.. حين قررت أن تكون هذه هى آخر ليلة لى بهذا القصر الكئيب، أسافر بعدها إلى السويس، ومن السويس إلى بيتى بالقاهرة ..غير أن ما حدث فى تلك الليلة أطاح بكل التوقعات ، فما كدت أضع رأسى على السرير، حتى شعرت بما يتحرك تحتى ففزعت، وسرعت إلى مفتاح الإضاءة، لأجد ثعبانا فى حجم الذراع يتحرك نازلاً إلى الأرض، فجريت مستنجداً هلعاً..شاعراً بالمكيدة، وبدافعٍ من عناد قديم، قررت أن أخوض حقل ألغامهم، بعد أن نقلوا معاركهم إلى أرنبة أنفى، فأخذت سكينا ورحت أبحث عن تلك العانس الشريرة وأذنابها، ففتحت بابها بركلة واحدة ولم أجدها.

نزلت إلى البدروم، واسطبلات الخيول، ومخازن الغلال، وسرداب شكرى. فدست على كتاكيت، وشممت روائح الروث والجواميس، وحين لم أجد أحداً، وجدتنى أسعى إلى بوابة القصر، وأمسك بتلابيب الخفير، وأركله متسائلاً:

ـ فين الناس اللى هنا ياد؟

فوجئ الخفير بالسؤال ، فتلعثم من هول المفاجأة:

ـ ناس مين يا بيه؟

ـ مش عارف ناس مين ياوحيد أمك؟!

ولطمته على وجهه فصاح متراجعاً:

ـ والله ما أعرف يا بيه.. أعرف منين بس يعالم.. وأنا..

ـ طيب يا عصابة ياولاد الكلب.. إن مسجنتكم!!

وعدت مختنقاً إلى القصر، وأنا أسمعه يهتف لنفسه:

ـ أنا عمرى ما دخلت القصر.. أعرف منين بس يا ناس؟!

هو أنا متعلم زيكم ؟ يا خراب بيتك يا بسيونى!!

الفصل الرابع عشر

فى منامى رأيت شكرى يرتدى بيجامة بيضاء، وخوذة مما يلبسها راكبو الدراجات النارية، وسمعته يسألنى عن رأيى فى الريش الذى زرعه تحت إبطيه . وراح يرفرف بهما ليرينى رشاقته، ثم صحبنى إلى السطح وقال "انتظر حتى آتى بنجمتين"..وفيما كنت أحاول منعه حتى لايسقط على وجهه ،رأيته يوغل فى العروج إلى السماء، وكلما بعد واختفى، عاد صدى ضحكاته أشد وضوحا وجلاءً ، وحين نزلت ببصرى من السماء إلى الأرض، رأيت خاله وأخته وكل الخدم والحشم، يتمترسون خلف سواتر ترابية أعدها مسبقاً فوق القصر، وما إن رأوه يحلق فى السماء، حتى أطلقوا عليه الرصاص وهم يتصايحون كالهنود الحمر، ويضَعون الريش حول رؤوسهم، فيما كان شكرى يحلق غير عابئ بالرصاصات التى كانت تصيب ريشه الناعم، وهو يضحك ساخراً مُتحدياً، ثم رأيت السائس الكظيم ينظر إلى بندقيته التى فسدت من كثرة الرصاص ، وراح يبكى، فيما ساح "الآر - بى - جي" فى يد الخال، فرماه جانباً وراح يصيح مرتعبا:

- الأرض .. الأرض يا كلب.. الأرض يا مجنون!!

فلم أدر إن كان يدعوه للعودة إلى الأرض، أم للتنازل عنها قبل أن يطير!!

وحين فشلوا فى إسقاطه، صوبوا بنادقهم إلى صدرى، فجريت مرتعباً، وأخذت ساتراً خلف برميل،وماأن أطلقوا النار حتى فزعت من نومى وسقطت على الأرض ، غارقا فى خوفى وخجلى!!

وما كدت أستعيد توازنى، حتى سمعت حشرجة شبقية تصدر من إحدى الغرف المظلمة، فمشيت إليها متسللاً..وما كدت أفتح الباب بسرعة، حتى سكت الصوت، وسكنت الحركة ، ثم شعرت بمن يندفع نحوى فجأةً ، ويسقطنى على الأرض، فيما تعقبه شبح آخر، وجرى كل منهما فى طريق.. لكنى استطعت فى غمرة هذا الظلام المقيم ،أن أميز حركة السائس، وصوت ثيابه الخشنة ، وخطواته التى تشبه خطو الإبل ، لكنى لم أستطع التعرف على الآخر، فأتيت بشمعة وعدت للمكان، فرأيت خمار الآنسة "أميرة" مطروحاً على الأرض!!

الفصل الخامس عشر

فى الصباح التالى صحوت على صوت ذكرنى بطابور الصباح، صوت مكرور، لجيوش تنتظم فى خطوة موحدة، ورمال لابد أنها كانت تغشى العيون!

فتحت النافذة فرأيت نجارا عجوزا ينشر خشبة طويلة، ولا يسمع صوتى، عاتبته على الإزعاج لم يلتفت نحوى، أو يهمه أمرى فصرخت فيه:

- أنت يا راجل أنت.. بتنشر إيه على الصبح؟

ولما تجاهلنى شعرت بالإهانة، فاقتربت منه وصحت فيه:

- مش فيه ناس نايمة؟

ولم ينقذه من غضبى سوى صوت شكرى الذى قال إنه أصم!

ثم سألنى إن كنت جاهزا لرحلة السويس، فأبديت امتعاضى وحاولت أن أثنيه عن ذلك، لكنه رفض كل الحيل، وأغلق كل الطرق فعدت لأجمع حاجاتى. وهناك سمعت خادمتين من الفلاحين تسترحن من المسح والكنس على جانب.. وتتهامسان عن أسرار القبو وغموضه، واستحالة دخوله حتى على سكان القصر.. وسألت إحداهما الأخرى إن كان سيدنا المسيح الحى يزوره بالفعل، فنفت الأخرى علمها بأى شىء. لكنها قالت إن هناك من يقول بذلك، لكن الله وحده يعلم. وحين لاحظتا وجودى أصابهما الخرس، وفى هذه الأثناء، استعجلنى شكرى بصوته المتعب، وسألنى إن كنت أجيد

القيادة فأكدت ذلك، وتركته يختبر نسبة الزيت ، وسلامة الموتور، حتى سمعته يقول بأسى شفيف:

ـ عربية والدى الله يقدس روحه.. محدش ركبها من سنين .. كانت أحدث موضة وقتها!!

وفيما كانت السيارة تزحف بصعوبة على الأرض الموحلة، حانت منى التفاتة لنوافذ القصر الكبير، فرأيت ستائره الداكنة تتحرك، والعيون تتلصص من خلفها، ولم تتركنا حتى عبرنا البوابة الحديدية الشاهقة، وأغلقها الخفير خلفنا..

ـ عبد الحميد..اعمل حسابك إنى مش حاقدر أسوق لحد السويس .. آه..

هكذا صاح شكرى وهو يأخذ الطريق السريع، فوجدتنى ألوم نفسى، وأتوقع ما يمكن أن يحدث هناك إن داهمته الحالة..

وكان أول ما فكرت فيه أن نعيش عند صديق يدين لأينا بأى فضل، أو نؤجر "شاليه" بعيدا عن كل الفنادق.

ـ إيه يا دومانى؟.. رحت فين؟.. حتسرح من أولها؟.

وناولنى ترموس الشاى فصببت لكلينا ،وأنا مأخوذ بخضرة الحقول، ومداعبة الصفصاف لصمت السواقى !!

ـ شوف الفلاحين عملوا إيه فى الطريق؟ كل واحد ضم حتة لأرضه.. لحد ما بقت زى المدق.. حد كان يقدر يعمل كده أيام بابا؟.. آدى يا سيدى الثورة وتأميمات الثورة..

عاجبك كده؟

كدت أقول: "فيه حاجات كتير جداً مش عجبانى" لكنى صمت، ورأيت أنه من المهم أن ينتبه للطريق، حيث كانت الترع تتوازى وتتقاطع.. وكانت

"السباعية" قد تحولت ـ شيئا فشيئا ـ إلى نقطة بعيدة ظلت تصغر وتبتعد حتى اختفت.

فيما لاح الطريق السريع لامعاً مغسولاً.. وقبل أن أغفو كعادتى رأيت لافتة تودع الزوار، وتتمنى لهم السلامة، وأخرى تستقبلهم بترحاب، وتشير إلى السويس، وتحذر الجميع بأن السرعة مراقبة بالرادار!!

الفصل السادس عشر

- دومانى.. إنت يا دومانى.. قوم سوق شوية.. تعبت!!

فتحت عينى فوجدت شكرى قد ركن السيارة على جانب، و..

- قوم أنا تعبت!!

كانت الرمال تحيط بالطريق من الجانبين، فيما تتناثر الجبال الداكنة على مرمى البصر.

وحين أمسكت بعجلة القيادة، شعرت كأننى طفل يحبو لأول مرة، ويجاهد حتى لا يسقط على الأرض !!

- إيه .. إنت نسيت السواقة ولا إيه؟

- شوية!

- لأ .. خد بالك يا حبيبى.. أنا لسه ما تجوزتش!!

ضحك خجلاً فابتسمت.. ثم ناولنى كوب قهوة فلم أكمله .

- فكرة عبقرية الرحلة دى يا دومانى.. لكن تفتكر حد هناك لسه فاكرنا؟

- ده أقل واجب يا شكرى.. الطريق ده ياما قطعناه فى الصيف والشتاء. فاكر ولا لأ ؟

- فاكر.. وهو الطريق الوحيد اللى رحناه على أرجلنا، ورجعنا منه على ظهرنا.

- ندمان يا شكرى؟

- أبداً.. لكن صعبان علىَّ أن الحرب محققتش كل اللى عايزينه!

- مفيش حاجة بتحقق كل حاجة!!

- ماشى.. لكن على الأقل تحقق الحرية ..العدالة..الانتماء!!

- كل حاجة بتتخطف ياشكرى زى ماأنت شايف.. حتى الثورات. أوعى تقنعنى إن اللى قاموا بالثورات، هما اللى قعدوا على منابر السلطة، هناك دائماً "القادمون من الخلف".

- بالضبط.. واللى بيقلعوا الشجرة بثمارها عشان غيرهم مايستفدش، واللى أكلونا فراخ فاسدة.. ولحوم حمير.. وأطعمة مسرطنة، وهربوا بفلوسنا للخارج و..

- بقولك إيه ياشكرى.. ماتيجى ننسى وجع الدماغ ده..ونبص على مصالحنا. ملعون أبوهم كلهم!!

- وملعون أبونا.. لأننا سيبناهم يقسمونا ويعزلونا.. اركن على جنب.خلينا نتغدى!!

الفصل السابع عشر

ـ أهلا بكم فى مدينة السويس.

هكذا استقبلتنا لافتة حائلة اللون على مشارف السويس. وعلى بعد خطوات رأيناها تأمرنا :

– قف للتفتيش..

وأشار ملازم ثان بإصبعه، إلى المكان الذى يجب أن ننتظر فيه، فوقفنا. بعد أن انحصرت الأعشاب الشوكية على الجانبين ، وبدت السويس من بعيد سادرة فى غيها ، ورأينا أعشاب (الحنجل) و(المبروك) و(أبو رمانة) و(العسجد) وغيرها من نباتات كالحة ، تتحمل الجفاف والزيوت والملوحة!!

ـ الرخص لو سمحت!

ومد يده فى وجهى وكأنه يريد أولاً أن يعرف نوع هذه السيارة المنقرضة!!

كانت النقطة مليئة بالجنود والمخبرين، وقد شهروا السناكى عن أسلحتهم الآلية، وهو إجراء لم نكن نفعله إلا فى أوقات الحروب أو تسلل للعدو!!

ـ أقول تانى؟ .. الرخص لو سمحت!!

ـ رخص إيه حضرتك؟

ـ مش عارف رخص إيه؟.. طب انزل يا خفيف!!

وفتح باب السيارة، فرأى شكرى ينام كطفل على المقعد الخلفي!

ـ ودا مين ده كمان.. صحيه!

وزغد شكرى بسن قلم رصاص كان فى يده ، فصحت فيه معاتباً: عيب يا ملازم.

ـ ملازم؟.. طب انزل يا روح أمك !!

وأشار لطغمة من العسكر، فتجمعوا حولنا.وحاول أحدهم أن يشد شكرى من ساقه فصحت فيه: أوعى تلمسه دا عميد أركان حرب، فتراجع بعضهم، وتجرأ بعضهم الآخر هاتفاً:

ـ نشده يا باشا؟

ـ لا.. سيبهولى.. أنا اللى حروّقه بطريقتي!!

ـ انزل يا روميو.. وصحى اللوا بتاعك.

نزلت بهدوء حتى لا يصحو شكرى. فلم يلتفت الضابط لعجزى.

وصاح ساخراً:

ـ ولما هو عميد.. تبقى حضرتك أيه؟!

معاك بنجو بقى.. ولا رايح تجيب؟

وفيما كان يفتشنى، دون أن يبعد عينيه عن عينى.سألنى:

– مقلتليش.. معاك بانجو؟ ولا جى تشترى؟ صارحنى!!

وحين لاحظ ذراعى الصناعية، صاح مستدركاً:

ـ إيه ده ؟ عاجّز؟ طيب فيه رخصة ولا مفيش؟

– مفيش!!

– بطاقة؟

ولا بطاقة!!

– الله أكبر دا إنت ليلتك سودة !!

ثم رفع البنطال فرأى ساقى الصناعية، فنظر لتجهيزات السيارة ونادى على أحد العساكر: عسكرى.. هات الحديد وتعالى!!

كان شكرى قد صحا على صوتنا، فطلبت أن يعطى رخصته لحضرة الضابط، فنفى وجودها معه!!

وهنا ضحك الضابط ضحكة المنتصر، وأشار لعجزى ساخراً : ودا عاجز زيك؟!

وعند هذه النقطة، وجدتنى أصفعه على وجهه صفعة، خُيل إليّ أن العالم كله قد سمعها، ورأيت الجنود والمخبرين يتجمدون فى أماكنهم، والضابط يجمع شتات نظارته، كأنه يحلم !!

لذلك مر وقت طويل قبل أن يستوعب ماجرى، وقبل أن يتلقى الأوامر من عقله الباطن ، لكن المخبرين كانوا أسرع منه فقيدونى، وبطحوا شكرى على الأرض قبل أن يقيدوه!!

ما أذكره أن الضابط صاح مبهوتا وكأنه تخلص من كابوس فأزاح الناس جانبا ، وصاح كمن لدغه عقرب:

- يا نهار أبوك أسود [illegible] ضابط أثناء خدمته؟ دا أنت نهارك مش فايت!!

وحتى هذه [illegible] الجميع [illegible] استوعبوا الأمر، فران التوتر على بعضهم وترا[illegible]

- حطوا الحديد فى إيديه !!

حاول أحد المخبرين وضع الحديد فى يدى [illegible] ولم يتحرك إلا حين صاح فيه الضابط الشاب:

- جرى أيه ياعسكرى؟ حط الحديد فى إيده السليمة!!

ثم طلب الاتصال بمديرية الأمن، ورفض أن يوضع قطعة حشيش أو أفيون فى جيبى مؤكداً: إن ما فعلته يكفى لإعدامى!

وخامرنى شعور بأننى ضللت الحدود إلى إسرائيل ،غير إن ملابس الجنود وسمرتهم ، أعادتنى إلى الواقع المرير!!

كان شكرى قد صحا منزعجا، وسألنى عما حدث بالضبط ، فلم أفده بشئ، حتى سمع من يأمر العسكر:

- "هاتوا الراجل ده كمان"!!

فالتفوا حوله، وقيدوه بالحديد وهو لا يفهم ما يجرى حوله، فخوفتهم برتبته صائحاً ومنذراً : دا لواء أركان حرب يابهايم!!

فتراجع بعضهم، وتشكك بعضهم الآخر ، حتى اقترب شكرى وسألنى وهو يرى الحديد فى يده :

- جرى أيه يا عبد الحميد.. إحنا وصلنا للسويس؟!

وحين لم أجبه سأل من جديد:

- مين دول؟ ومين اللواء اللى بتتكلم عنه ده؟

- إنت ياشكرى !!

- أنا لواء ؟!

- وهو يعنى اللى باشا؟ ومع ذلك ولا همهم..معاك رخص؟

- رخص إيه يا عبد الحميد؟ ما أنت عارف!!

- طب معاك بطاقة؟ كارنيه؟ دول بتوع المرور!!

- مرور ولا عبور.ماأنت عارف ياعبد الحميد.

أعمل أيه بالرخص؟ ما أنت عارف!!

- يا سيدى أنا عارف.. بس هم مش عارفين!!

- إن شالله ما عرفوا.. المهم أنت عارف!!

كان شكرى يتكلم بصدق طفل لا يعرف الكذب أو المداهنة.

لكن ذلك بدا مثاليا فى مثل هذه الظروف، وربما لا يثير سوى الشفقة، لذا بات علىَّ أن أخفى عاهتى، بعد أن تغيرت الأحوال ، وحصد الثمار من تفيأ تحت ظلال المكاتب، وتركنا نختبئ من طائرات العدو فى حفر مترية، لطالما باتت قبرا لقاطنيها.

– حطوهم فى الحجز.. إن شالله يكونوا حرروا موزمبيق!!

الفصل الثامن عشر

لم ينقذنا من الحجز سوى المصادفة وحدها.. ففيما كانوا يدفعوننا إلى غرفة معتمة فى انتظار سيارة تقلنا إلى أقرب قسم، تناهى إلى سمعى احتفاء الحرس، بوصول رجل كنت أعرفه ، يبدو أنه كان فى القاهرة ، وما إن دخل البوابة الرئيسية حتى أفسحوا له الطريق ، وهم يرحبون بقدومه:

– أهلا ياكابتن غزالى !!

– حمد الله بالسلامة ياكابتن غزالى!!

– نورت البوابة ياكابتن غزالى!!

من فرجة ضيقة بمحبسى، رأيت رجلا ممصوصا يغطى شعره الأبيض بـ"كاسكيته" تخالف لون بشرته الداكنة، ويركب سيارة عتيقة الطراز، يقودها عجوز آخر، فصحت فيه:

ـ محمد يا غزالى.

ويبدو أنه لم يسمعنى، فصرخت باسمه صرخة لم أصرخها حتى وأنا أعبر القناة، وأرى دمى يخالط مياهها المالحة:

ـ غزا.. ا .. لى.. لى..لى..!!

فتوقفت السيارة على جانب، ونزل الغزالى مترجلا وسأل أول من قابله عن صاحب هذا الصوت، فدله على حجزنا فتحسس طريقه إلينا مستطلعا وجلاً، فصحت مستنجداً:

ـ ازيك يا محمد؟!

- مين؟

- عبد الحميد الدومانى!!

ألقى الرجل بسيجارته على جانب، واقترب متأملا، وناقلاً نظراته بين وجهى وقيودى قبل أن يصيح فرحاً!!

- الرائد عبد الحميد؟

- هو بعينه!!

- اللى أصيب فى حى الأربعين؟

- هو بدمه!!

- ومن دا كمان؟

- المقدم شوقى المسيحى؟

- شكرى !!

- اللى دافع عن سيدنا الغريب؟

- وعن السويس كلها

- يا ولاد الأبالسه.. إنتوا لسه عايشين؟

واحتضننا بحرارة، وهو يكاد يبكى من الفرح - حتى فوجئ بقيودنا - إيه ده؟ ياحضرة الظابط يا..وسأل عن رئيس الوردية فدلوه على الضاط المهان، فأخذه على جانب، وبذل جهدا كبيرا ليتنازل عن المحضر، وحين حاول أن يماطل ويتحجج بالقوانين واللوائح، هدده بالمحافظ واتصل بمدير الأمن، ولم تمض دقائق حتى كنا نسير بسيارتنا خلف سيارة غزالى.

ومن النافذة التى جففها المناخ ، بدت السويس كأرملة المدائن، وهالنى ذلك العدد الكبير من الغربان التى تنعق فى كل مكان، وشحوب الشجر، وخلو الحدائق من الأطفال، والناس من الشوارع إلاّ من بعض المنقبات

والمحجبات اللائى يمشين بتراخ على الأرصفة المتسخة ، تسبقهن بطونهن، وملابسهن المتشابهة، وهن يصعدن الأرصفة القصيرة بصعوبة لافتة، ويجرجرن خلفهن أطفالاً كثار. يتهافتون على (البوزو) و(الشيبسى) ويتعاركون لضرب أغلفتها المفضضة ثم يرمونها على امتداد الطريق إلى وسط المدينة، حيث ترتفع لافتات دينية وعسكرية تشير إلى أن "جنودنا خير أجناد الأرض" و"ممنوع الاقتراب والتصوير"، و"لا تشغل نفسك بغير الطريق"، و"هذه الأرض ملك للحكومة" والسويس مقبرة الغزاة .. والإسلام هو الحل .

وبين الحين والحين، تظهر بيوت الصفيح والعشوائيات التى تنشر غسيلها فى نهر الشوارع، وتستعيض عن الأبواب بستائر من ملاءات قديمة، تكشف أكثر مما تخفى، وعلى أسطحها الخشبية، تظهر أطباق "النايل سات"، وكراكيب الحرب الأخيرة، فيما تنتشر الأعشاب الشوكية والحولية وسط العشش ، وحول بالوعات المجارى، حيث تتناثر بقع بترولية على الرمال الخشنة دون أن يعرف أحد، إن كانت بشائر بترولية، أم بقايا تانكات غسلها سائقوها بعيداً عن الرقابة.

وعلى الكورنيش الذى ردموه بالطمى والحجارة، وسوروه بالحديد المدبب، رأينا مجمع المحاكم يجاور مديرية الأمن، والمخابرات تجاور الأمن المركزى، والنيابة الإدارية، تتاخم الشرطة العسكرية، ومصلحة الضرائب تقابل المشرحة، وعلى البنايات ونواصى الشوارع: لافتات تقول "خلى السلاح صاحى" وتؤكد أن القناعة كنز لايفنى، وترحب بضيوف المحافظ، والسادة أعضاء مجلسى الشعب والشورى!

وفى ركن بعيد من شبه الدائرة، يربض قصر الثقافة الذى شيده عبدالناصر على الطراز الروسى. وقد بدا شاحباً ومهجوراً، وخلف أسواره التى أكلتها الرطوبة يتجمع غلمان الشوارع ليدخنوا البانجو، ويتعاركون بالسنج لأتفه الأسباب، وفى نهاية الدوران شُيّد مسجدٌ جديد بعدة مآذن، وعدة ميكرفونات ضخمة، وقد فرشت أرضيته الرخامية، بكليم أخضر بارد، بدا حكراً لرجالات الأمن، وموظفى الحكومة.. فيما أزيلت سواتر الطوب الأحمر من أمام العمارات، وردمت المخابئ العنقودية قبل أن تمتلئ بمياه الصرف، ورُفعت صفارات الإنذار. وأدوات الطوارئ.

- دومانى إنت متأكد أننا فى السويس؟

- أمال حنكون فين يعنى؟.. فى الصومال؟

- آخر مرة أكلتوا فيها جمبرى قزاز وكابوريا ملوكى امتى يا غجر؟ أوعى حد يقول لى من الإعدادية؟!

هكذا هتف الغزالى، وهو يركن سيارته بجوار مطعم فاخر على الخليج ، وهو يقودنا مرحباً. فسمعنا صياح النوارس، وشممنا رائحة اليود والمرجان، وشعرنا برذاذ البحر يداعب الوجوه، ويبلل الطاولات المعدنية، فسألت شكرى مداعباً:

- إيه رأيك؟ هنا.. ولا السباعية؟!

- صدقنى يا دومانى لو قلت لك: إنك غيرت حياتى فى أقل من أسبوع.. أنا مش عارف أشكرك إزاى!!

ثم سألت الغزالى مازحاً:

- وأخبار الناس إيه يابو الكباتن؟

- ناس مين؟.

ـ ناس مين؟ ..حبايبنا بتوع السويس. ناس المقاومة.. وأولاد الأرض.. أحمد فاروق، وفتوح السعدنى، ومحمود البمبوطى.. وفريد درباله.. وفخرى موريس، وسعاد الغرباوى و..

ـ مبقاش فيه حد يا عم دومانى ..كله خلع!!

ـ يعنى أيه خلع ؟ سافروا؟ولا هاجرو؟ ولا راحو فين؟

– اللى سافر سافر، واللى هجّرته المحكومه ومرجعش، واللى رجع وشاف الحال فرجع تانى.. حتى البحر مبقاش مصدر للتجارة أو الصيد.. وبقينا بنشترى (الشخرم) من راس سدر، "والبكلاويز" من سفاجا "والقزاز" من القنارة، والبلطى من دمياط، حتى الكابوريا بقينا نستوردها من الصين ، بعد ما اتلوث البحر، وبقت المينا جزء من المشكلة: لابيع، ولا شرا، ولاصيد، ولا سفر، ولا.. !!

ـ وانتوا ساكتين على كده؟ خلاص تعبتم ؟ قاوموا.

ـ نقاوم مين ولا مين؟.. احنا استنفدنا مقاومتنا مع العدو.. والعمر بيجرى يا عم عبد الحميد..!!

ـ أمال فين التنمية والاستقرار والإعمار؟ إحنا لما كنا هنا من عشرين سنة، كان فيه أرض بتستصلح، ومدن بتتخطط. وكبارى بتتأسس.. وجنايين بتستزرع!!

ـ كله وهم.. فخ لأموال النفط.. وشيوخ الخليج . شفت حاجة وأنت جى؟

ـ مفيش غير مساكن كئيبة.. وعشش زى القبور..و..

ـ شفت حاجة تانية .. تقدر تراهن عليها؟

ـ شفت شوارع خالية، وجنايين كئيبة، وناس بتكلم نفسها و..

ـ كويس كده ..عاوز تشوف حاجة تانى؟ إنتم قاعدين كام يوم؟

ـ يومين تلاتة.

أستأذن شكرى ليدخل الحمام، ثم عاد وهو يجفف يده. ويشكر غزالى على هذه الدعوة الحاتمية، فتوجهت ـ بدورى ـ إلى الحمام، وتركتهما معا..

وهناك شغلت نفسى بالإقامة، وعما يمكن أن يفعله شكرى إن عاودته الحالة، هل أصارح غزالى بالحقيقة فأرميها فى ملعبه، أم أقيم معه فى غرفة واحدة بفندق بعيد؟

كنا فى نهاية شهر فبراير، ولم يكن مناسبا ـ أبدا ـ أن ننام فى سيارة، أو نسكن فى شاليه على البحر.. ففكرت فى عدة سيناريوهات كلها مزعجة، لكن الغزالى سهل علينا الأمر، وناولنا مفتاح شقة بحى فيصل قائلاً:

ـ شقة فى الدور الرابع.. أخدتها من المحافظ القديم، ولا تحبو تنامو مع الولاد؟!

رفض شكرى ذلك شاكراً، ورفضته بدورى، فصحبنا غزالى إلى حى فيصل، حيث تفوح روائح الفساد، والإهمال، وغسيل الأموال:

ـ معلش بقى.. الشقة ضيقة ومش قد المقام.. لكن فيها سريرين وثلاجة. معاكو موبايلات؟

قال شكرى على الفور:

– معانا!!

ـ خلاص متنعوش هم.. الفطار حيكون عندكم الساعة سبعة. والغدا عندى فى البيت، والعشا على البحر. معاكم حشيش؟

ـ لا..

- ولا أنا.

وضحك فضحكنا..

ملكوش دعوة بالجيران، ولو حد خبط عليكم متفتحوش.

- أنا مش كل شوية حجيبكم من قسم شكل.. سلام عليكم .

كان التعب قد هدنا، لذلك ماكدنا نضع رأسينا على السرير حتى رحنا فى سبات عميق، لم يوقظنا منه سوى جارة شابة أرادت أن تجاملنا، فقدمت ماءً بارداً، وشايا بالحليب، مؤكدة أن لديها من تروق لنا الشقة وتغسل لنا الملابس فشكرناها وسمعنا كلام الغزالى، ثم ركبنا إلى الكورنيش ووسط البلد حيث المقاهى الساهرة، والفنادق والمنتزهات، فلم نعثر على مكان نسهر فيه أو حتى نجلس عليه كان هناك من يحرم ذلك، ويحاول أن يقاومه بقوة بدعوى أنه حرام ومضيعة للوقت،

وكان الليل قد انتصف، فخفت على شكرى، لذلك فكرنا أن نجلس على الخليج، ونضع أرجلنا فى مياهه الباردة، أو نشرب القهوة فى كافيتريا تطل على الخليج .. أو نأكل الذرة والبطاطا على الكورنيش، حيث الأولاد والأمهات السمينات الفارشات ملاءاتهن على النجيلة الرخية وكلما ركل الأولاد الكرة نحونا سارعت احداهن بالاعتذار ونصحت الأولاد بالكف عن مضايقة أعمامهم، ولكى يسمعوا الكلام يملأن أكفهم الصغيرة بحفنة ترمس أو فول مشوى بالملح والشطة.

- إيه يا دومانى؟.. رحت لفين؟.. بقالك ساعة بتلف بالعربية ... مش قلت حنسهر؟

- آه.. لكن مش لاقى الكورنيش!!

كنا نسمع وشيش البحر من بعيد، لكن يعزلنا عنه سور حديدى عال، وأرض سبخية عطنة لها لزوجة المجارى، ونتانة القمامة. فدلفنا إلى وسط

المدينة فلم نجد محلا مفتوحا.. كان الأمن ينتشر فى كل مكان، ويقابلك العسس عند كل ناصية، فيما تتوامض مصابيح السفن ، وتخفت أنوار الشمندورات، وأضواء الفنارة، فسألنا عن مقهى قريب، أو فندق يسهر للصباح، فدلنا بمبوطى سكران، على مقهى القناة، وحين وصلنا إلى هناك وجدنا العمال يغلقون الأبواب، ويجمعون المقاعد!!

- إيه اللى جرى للسويس؟.. بقت كئيبة ومعتمة؟

هكذا قال شكرى فلم أجد ما أقوله، لكنى سألت نفسى: هل هذه هى السويس بالفعل؟ السويس التى ضحينا بحياتنا وراهنا بعمرنا من أجل أن تكون أم المدن؟

. أنت قريت اليافطة كويس يا دومانى؟.. أوعى تكون وديتنا حتة تانية!؟

- إزاى بقى؟..

- تكون ودتنا الزقازيق مثلا أو بنى سويف؟

- طب ومحمد الغزالى.. والخليج؟ ومدخل القنال؟

- لا شفنا خليج.. ولا شفنا قنال.

- متنساش إننا فى حالة طوارئ.. ولازم الناس تنام بدرى.

- ليه.. حيحلبوا الجواميس؟

- طب مجد سيدك وبص حواليك. ولا أنت خدت على الحبس؟

كنا نقف على جانب الطريق حين أتى شخص بدا من ملابسه الكاكية أنه مخبر، لأنه مد رأسه داخل السيارة وسألنا:

- أى خدمة يا بهوات؟.. واقفين كده ليه؟

- بنشم شوية هوا..

- هنا ممنوع يا أستاذ.

ويبدو أنه استثقل أن يطلب أوراقنا فاكتفى بالإشارة إلى ضرورة المغادرة، وأشار إلى الطريق الذى ينبغى أن نتجه إليه.

ـ أول مرة أعرف إن الهوا ممنوع.

ـ دا أنت قديم قوى يا شكرى!!

سرنا باتجاه القناة، فرأينا قافلة تعبر المجرى من الشمال للجنوب، وقد خففت أضواؤها، واختفى ركابها من البرد والضباب .

ـ اللى ما حد عرفنا.. أو عبّرنا.

ـ الناس اتغيرت يا عم شكرى.. أجيال جابت أجيال.. إنت بتتكلم عن ربع قرن فات.

ـ طب واحد بس يقف كده ويقول: مين؟ المقدم شكرى؟ أو واحدة تشهق كده وتقول: مش معقول. الرائد عبد الحميد.. مش فاكرنى؟

– وياريت تكون حلوة ..ومتكنش ركبت آلة الزمن !

ـ قصدك إيه ؟ عجزنا؟!

ـ أنا قلت كده؟

ـ باحسب.

وجدنا الكافيتيريا مفتوحة، فدخلنا إلى الضوء والصخب، وجلسنا على مقاعد البار وطلبنا بيرة وجمبرى وكليمارى، ومن حولنا تصدح موسيقى يونانية وإيطالية قديمة.

ـ شايف النسوان يا مقدس؟..أيامنا مكانش فيه بنات بالشكل ده ولافيس بوك!!

_مكناش عرفنا الدولار.. ولا الدرهم.. ولا..

– ممكن تولع لى؟!

هكذا اقتحمتنا سيدة جميلة، تفوح بالعطور المستوردة، وتضع سيجارة أجنبية فى مبسم عاجى ، وهى تكاد تجلس على ساق شكرى!

ـ ولع لها.

هكذا صحت فى شكرى شامتاً فارتبك قليلاً، وحاول أن يذكرنى بأنه لا يدخن.. فأشحت بوجهى وقلتً : اتصرف!!

وأشرت لها بالجلوس فجلست ، فيما راح شكرى يبحث عن كبريت، وهو فى قمة الخجل، وفى هذه الأثناء اختلست عدة نظرات إلى ضيفتى فشعرت أننى أعرفها، أو رأيتها من قبل، لكنى عزوت ذلك للبيرة ، فطلبت المزيد، ورأيت شكرى يأتى من صالة الديسكو ، وهو يجرب ولاعة، لابد أنه استعارها من جرسون !!

ـ اتفضلى يا هانم.

هكذا صاح، وهو يشعل الولاعة، ويقترب منها بطريقة ارستقراطية، فشكرته وتساءلت :

ـ عندكم مكان.. ولا أتصرف أنا؟

ارتبك شكرى وانتظر أن أجيب إن كنت قد فهمت شيئاً، فقلت:

ـ عندنا طبعا..

ـ طيب أنا باخد خمسمائة جنيه.. ولا معاكم دولارات؟

ـ معانا كل حاجة!

هكذا هتفت دون أن أتحقق من أى شىء.. أو أهتم بدهشة شكرى، وطلبت بيرة للجميع، لكنها رفضت البيرة، وقالت إنها لا تشربها لأنها حرام لذلك لاتشربها إلا مع واحد غشيم، أما إذا كان مع اثنين، فتفضل "الساكوكى"!

ـ ساكوكى؟ دا غير السوزوكى؟

ـ آه.. خليط من الويسكى الأيرلندى، والنبيذ الإيطالى، والساكى اليابانى!! ثم أشارت للبارمان فأعده دون أن تطلبه، ووجدت شكرى ينتظر منى إجابة، فدعوته لشرب (الساكوكى) ليكون "على مستوى القعدة"!!

وفى الطريق إلى شقة فيصل فكرت أن أتصل بغزالى وأستأذنه فيما سنفعله فى شقته، لكنى تراجعت فى آخر لحظة، حين سألتنى وهى تشعل سيجارة جديدة، وتنفس الدخان فى قفا شكرى:

– والبهوات ساكنين فين؟

– فى مساكن فيصل.

ـ فيصل؟ لا يا حبيبى.. حاخد ألف جنيه..أنا افتكرتكم بهوات!!

ـ قلت معاتباً وأنا أرنو لشكري:

– للدرجة دى شكلنا يعر؟!

– افتكرتكم انفتاحيين جدد..تصدير واستيراد.. تجار مخلفات سفن شكمجية.. توريد مستلزمات بمبوطية.

– وهو بقى فيه بمبوطية دلوقت؟

–على رأيك ..منه لله أبو زبيبة.. مسكها عشر سنين رجعنا عشرين .

ـ إيه ده؟ لا أرجوكى أوعى تفوقى ..عايزين نقضّى الليلة دى على خير!!

ـ والبهوات منين ؟

ـ أنا من القاهرة.. والبيه من الشرقية؟

ـ وإيه اللى لم الشامى على المغربى؟

ـ صداقة وزمالة قديمة.. و.. واحدة ست؟!

ـ مش عارفة ليه مش مستريحة لك؟!.

ـ ليه كفى الله الشر؟

ـ مش عارفه.. حاسة كده إن دى مش أول مرة أشوفك .لا أنت ولا الراجل المحسّوك اللى جانبك ده.. اللى عامل نفسه طيب وابن ناس!!

تطلعتُ إلى شكرى شامتاً وسألتها:

- إنتى شايفه أنه مش ابن ناس؟

كظم شكرى ضحكته، فقالت:

- إنتو أول مرة تيجو السويس؟

وقبل أن نجيب عن السؤال استطردت:

-على فكرة.. إحنا ممكن نقضّيها فى العربية.. أو نطلع الجبل. وليكم عليّ أعمل تخفيض خمسين فى الميه.. قلتم إيه؟

- تسمحيلى أشاور أمى الأول!!

- إحنا حنهزر.. أركن على جنب!

ووضعت "موس حلاقة" على حنجرتى، فأوقف شكرى السيارة على جانب، وسمعناها تأمرنا بصوت قاطع:

- حنخلص هنا.

- هنا فين حضرتك؟ فى الضلمه؟ ميصحش!!

- خلاص.. استنو يوم ماتش الأهلى والزمالك، نروح الاستاد ونعملها تحت الأضواء الكاشفة!!

- إنتى حتهزرى ياروح أمك؟ إيه رأيك يا شكرى؟ تعملها هنا ؟!

فوجئ شكرى بالموقف فرفضه على الفور، كأنه فوجئ بعقرب فى يده .. فنفى رغبته فى أى شىء. وبدا النفور واضحاً على وجهه.

ودون أن تنتظر أية إجابة من أيّنا، فتحت الباب بحدة وتركتنا نتبادل النظرات والسجالات، وقد تبخرت البيرة من رأسنا.

وفيما كانت (المُزة) تغادرنا نحو المدينة التى خفتت أنوارها، خالجنى شعور لايخيب بأننى رأيتها من قبل!!

الفصل التاسع عشر

فاجأنى شكرى بنوبة مرضية أربكت حساباتى، ففى الليلة الأخيرة لنا بالسويس، وبعد أن ودعنا ما بقى لنا من ذكرى، وفشلنا فى العثور على الأحباء، وجدته صامتا زائغ النظرات.. وضاعف من قلقى أنه لم يستجب لمداعاباتى، فعزوت ذلك لرحلة البر الغربى، حيث عبرنا القناة إلى سيناء دون أن نسمع طلقة واحدة، أو نرى نقطة دم !!

كنا قد ركبنا مركبا إلى خط بارليف، فلم نجد خطاً ، ولا ذكرى، كانت أبراج البترول وتوسيع القناة تمتد على مدى البصر، وقد ضموا خط بارليف للمجرى المائى، ونقلوا النصب التذكارى، وتركوا نقاطاً تذكارية للسياح، فتعبنا لنصل إلى إحداها.. وعدنا قبل أن يحل المساء، وما كاد الليل ينتصف ، حتى سمعت صراخا وتكسيرا لزجاج وأوان معدنية !

فى البداية ظننت أن لصاً هاجم شكرى وهو نائم، أو ذئباً صحراويا تسلل عبر النافذة، ففزعت من نومى، وأضأت النور، فوجدت بابه مغلقا، دفعته بعنف فلم تساعدنى قواى، فتحت باب الشقة لمن تجمع من الجيران، فسمعوا ذلك الصوت الذى كنت أسمعه فى القصر القديم .. صوت أقرب إلى صوت النسور، وهى تحوم حول رجل يحتضر فى صحراء.

وعلى الفور تذكرت مرض شكرى وتداعياته، لكن الوقت لم يكن يسمح بأى شرح أو تحليل. فكسرنا باب غرفته لنجده منبطحاً تحت السرير، وقد

مزق اللحاف بأسنانه، ونزع أحشاء الوسائد، فيما انتشرت شظايا الزجاج والتليفزيون فى كل مكان.

حاولت أن أسحبه وحدى إلى الصالة، فلطمنى على أنفى فأدمانى.. تراجع الناس من خلفى، وراجع بعضهم الأمر على ضوء ما جرى. حاول أحدهم أن يعتدى عليه فمنعته، وضمدت جرحى ببشكير نظيف، ما لبث أن امتلأ بالدم، سألنى أحدهم إن كان يتوجب طلب البوليس أو مستشفى المجانين، فقلت إنه زميل قديم، وأكدت أنه مريض، وما أتيت به إلى هنا إلا ليشفى، وتحت العمارة الكابية رأيت غزالى يشق طريقه بين الجموع، وقد ركن سيارته على جانب، وصعد متسائلا قلقاً، وما إن رأى دمى، حتى أخذنى على جانب، وسألنى :

- فيه إيه يا دومانى؟

- أبدا.. مفيش!!

- مفيش إزاى؟.. والناس دى واقفه ليه ؟.. ماله شكرى؟

- حالة كده.. بتجيله بالليل.. وبتعدى بسرعة!!

- يعنى إيه حالة وتعدى؟ واشمعنى بالليل؟

أخذته إلى جانب، وشرحت له بعض ماأعرف ، فشكر الحضور وأغلق الباب:

- ومقلتليش ليه من الأول يادومانى؟

- افتكرته خف.. أنا أصلاً جبته السويس عشان ...

- يكونش كلامنا زعله؟

- ماظنش.

- والحل؟.. نوديه مستشفى؟

- مش عارف..

رفع غزالى البشكير عن أنفى، وتأملنى قليلاً ثم قال: لا.. بسيطة!

وطلب من شابين أن يحملا شكرى فحملاه ، وأرقداه على السرير.. ومع حلول الصباح كان شكرى قد استكان كطفل يتيم، ليجد نفسه تحت أعيننا، ورأى الطبيب يفحصه، ويخطره بأن حالته مستقره، ولا داعى لحجزه بالمستشفى.

كان مشغولا بحادث دموى وقع على الطريق السريع، فكتب بعض المهدئات، والمسكنات!!

وقبل أن تشرق الشمس، تعافى شكرى واعتدل أعلى كرسيه، فلم نجد ما نقوله له. أو نذكره به، لكنى حاولت أن أعتذر لغزالى عما لحق بشقته، فلعن الشقة، وخاش صاحب الشقة !!

وحين تركته مع شكرى، وجلست أتأمل السويس من أعلى ، لاحظت أن تداعيات الحرب قد تركت آثارها على كل شىء :الناس والبيوت والشجر!!

فأيقنت أن خسائر الانتصار، قد تفوق خسائر الهزيمة.. لكن ما قلل من شعورى بالمرارة، أننا كنا نؤدى واجبنا، وندافع عما نحب له أن يبقى!!

- إيه رأيكم لو نفطر عند كلدونى؟

- مين كلدونى؟

- الإيطالى الوحيد اللى قعد فى السويس .. وفتح فندق عند المعدية !!

• فسألته عن (على المنجى)و(وهيب البمبوطى) و(فهيمة العسال) و(نعيم الزواوى) فنفى علمه بوجودهم..وراح يبحث بعينيه الصقريتين عن ابنة على – بين الأولاد فى الشارع– فلم يجدها. قال إنه سافر– كغيره– على مركب أمريكى إلى بلاد اليونان. ناس شافوه فى قبرص، وناس قالت فى طبرق، وناس قالت إنه ضرب كفيله الخليجى بالحذاء، وذهب لبلاد الواق واق!

ـ كلام .. فى كلام.. حد كان يتخيل ييجى يوم على المصريين يهربوا لإسرائيل؟ أو زنجبار؟ أو السودان وإريتريا ؟ فيها إيه البلاد دى مش عندنا؟ وليه كل واحد عايز يهج.. أو يغرق..أو يموت؟!

كان شكرى قد استعاد توازنه، فسمع كلام الغزالى، لكنه لم يعلق، فسأله الغزالى بأبوةٍ مفاجئة :

ـ عامل أيه ياشكرى؟ ماكلتش ليه؟

ـ مليش نفس!

ـ وإنت يا برنس.. ملكش نفس إنت كمان؟

أومأت برأسى مؤمناً، فرمى ما فى يده ، وصاح:

ـ ملعون أبو الفطار واللى يفطر معاكم .. يالا بينا.. أنا عارف إنتوا عايزين إيه!!

وأخذنا إلى ركن الخمور الذى لم يزدحم بعد، وطلب من زوجة كلدونى أن تعد كوكتيلا من (السم الهارى) ثم نظر إلينا ساخراً وصاح :

– وإنتوا حتشربوا أيه؟ يانسون.. ولا حلبة حصى؟ هاتى لهم مغات يا سنيورا بابيتا.

صاح شكرى مستفزاً:

– وبعدين ياغزالى ؟ حنقضيها تريقة ولا إيه؟ طب إيه رأيك بقى أنا حاشرب اللى حتشربه!!

–طيب: بريجو سنيوريتا.. دامى أنو فينى بيانكى فريتا !!

ـ بريجو سنيورى !!

ـ بسرعة معندناش وقت ..سكوزى بريجا فريتا!!

أخطرنا الغزالى بأننا سنغادر السويس بعد أذان الفجر، وذكرناه بملامح السيدة التى رافقتنا أول ليلة بالفندق الكبير، فظل يضحك حتى دمعت عيناه.

ـ إنتوا مش عارفينها بجد؟

قال شكرى مندهشا: ونعرفها منين؟

قلت: أنا حاسس إنى شفتها قبل كده.. لكن فين؟ مش عارف!!

ـ وتقوللى عجزت ؟ آه يا زمن!!

ـ طب فكرنا يا عم غزالى.

ـ أفكرك بإيه ولا إيه؟ أنت فاكر البنت اللى كانت بتبيع أم الخلول على ناصية الأربعين؟

ـ ناصية الأربعين.. ناصية الأربعين؟

ـ اللى كانت بتوصل الأخبار والسلاح لرفاقنا فى الخنادق!

ـ أوعى تكون هى!!

ـ هى بعينها..سعاد المناديلى!!

ـ لأ.. قول كلام غيرده . بس دى كانت صغيرة قوى ياكابتن!!

– ما أنت بتتكلم عن ربع قرن يا عم الحج.. أنت سكرت ولا إيه؟

قال شكرى: طب وإيه يخليها تعمل كده؟

- هو نفسه اللى خلاك تعمل كده ياعم شكرى!!

- إنت بتقارنى بواحدة زى دى ياغزالى؟

- والله ما بقى حد عارف مين الشريف فى الزمن ده!

- دى طلبت مننا خمسمائة جنيه يامؤمن!!

- ما تطلب ياأخى.. والغاوى ينقط بطاقيته!

- بس كده تبقى بروفيشنال.

- بروفيشنال.. بروفيشنال. الله أعلم لو كنت مكانها كنت عملت إيه!!

صحت فى الغزالى محتداً بعد أن وصلتنى الإهانة :

– وبعدين ياكابتن .. حنلبخ ؟

قال شكرى وهو يحاول هضم الإهانة:

– يظهر إنه سكر..والله أنا افتكرتها سيدة أعمال ولا مديرة:

فرير، وألماظات.. و..

- وإيه المشكلة؟ بصوا يا بهوات.. فيه حاجة لازم تعرفوها لسبب بسيط وهو: إن كل السوايسة عارفينها، ونفسهم ينسوها، إنتم لما كنتم هنا كانت السويس كده؟

- لا..

- جميل.. فيه زمايل ليكم ماتو أو أصيبوا، وحبايب لنا غرقوا ، أو داستهم دبابة.. صح؟

- إيه ده؟ إنت حتدينا درس خصوصى؟ ماتخلص ياعم !!

. فيه مدينة فى خط القنال شافت اللى شافته السويس؟!

ـ لأ..

ـ طب أيه اللى حصل بعد الحرب؟ وعدونا بالمن والسلوى، وفى الآخر حصل إيه؟ ولا حاجة.

لا شفنا من ولا سلوى. وفى الآخر طلع علينا أبو زبيبة وقال: اصبروا يا ولاد.. كلها سنتين ويعم الرخاء!!

سألنى شكرى ببراءة الأطفال عمن يكون"أبو زبيبة" هذا، فلم أجبه.

ـ قعدنا نغنى وننتظر الغنايم لحد ما عدت سنة ٨٠ وقلنا: مين حيبنى اللى اتخرب، ومين حيدير المدينة الحرة، ومين حيوسع المينا، ويخليها تنافس فرانكفورت وسنغافورة، ومين حيعمل (تليفريك) فوق القناة، ومين حيعمر سيناء ، ويزرع جنات عدن؟ مين حيشغل المصانع.. ويطور المتاجر؟ ويغنى معانا:

"يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى،استشهد تحتك وتعيشى إنتى"

ويقول: إرجعوا يا سوايسه شققكم محفوظة، وظايفكم موجودة، كرامتكم محفوظة، وفجأة:

جت بورسعيد.. وهيلا هوب.. خطفت الكورة من العيال، وقالت:

منتوش لاعبين!! طب نلعب ورا الجون يا عم الحج، نلم الكور اللى تطلع كده ولا كده . قالوا: هاردلك.. جيم أوفر. ربنا عايز كده ولا راد لمشيئته، حتعترضوا على كلام ربنا كمان؟

بعد شهرين جالنا محافظ عسكرى وقال: اللى عايز يعيش كدا يعيش، واللى عايز يسافر يسافر، واللى عايز ينتحر يتفضل ينتحر.. وهو يوفر أكله! اشرب ياعم دومانى اشرب.. اشرب علشان تنسى!!

– أنا مش جى أنسى ياغزالى..أنا جى عشان أفتكر!!

– تفتكر إيه ياعم الحج ؟ إنت حتصيع علىّ؟ الناس بتدفع دم قلبها ، وبتخالف أمر ربنا عشان تسكر ، وإنت جى تفوق؟!

– غزالى..متتخطاش حدودك ، واعرف أنت بتكلم مين!!

– بكلم مين يعنى؟ القنصل؟ ياخى تواضعوا بقى، وبلاش عنطزة . نفختونا

– صلوا على النبى ياخوانا .. ميصحش كده .. إحنا صحاب !!

هكذا صاح شكرى مصالحاً ، فاستطرد الغزالى:

– حد فيكم شافنى بشرب سيجارة ، أو بق بيرة فى حصار السويس ؟ إنتم ليه مش عاوزين تعترفوا إن الحرب غيرتنا؟ دى غيرت حتى الجبل ، وخلت دى أرخص متعة فى البلد؟ وجايين تدوروا على شوية ذكريّات؟ ذكريات إيه ياعم الحج، فى بلد العشا فيها بقى ترف؟ وربع سكانه بياكلوا من الزبالة؟ أحمدوا ربكم إنكم لحقتم حتة شقة تتاووا فيها، ومعاش تصرفوه كل شهر، وتعويض تشتروا بيه عربية قديمة، تفِ فيها.

– وعليها– صاحبها.. قبل مايبيعها!!

– ما إنت برضه لحقتلك هبرة من التورتة ياعم غزالى؟

ـ أنا؟ بأمارة إيه ياعم دومانى؟!

ـ بأمارة إيه؟. احنا حنفتّح على بعض؟

ـ سايق عليك النبى تفتّح.. ريحنى الله يخليك لأنى حطق. تحب أجيب لك سنة أفيون عشان تركز؟ ولا طبنجة تقتلنى بيها؟

- لا ياحبيبى أنا مركز قوى قوى.. تقدر تقول لى السلاح راح فين ياغزالى؟!

- سلاح إيه؟

- سلاح المقاومة !!

- رجعناه للحكومة!!

- كله؟

- يعنى إيه كله ؟ أيوه كله !!

- والمعونات اللى جت من دول الخليج.. والاتحاد الأوروبى؟

- قصدك البطاطين واللبن المجفف و..

- والخيام والزيوت والصابون؟

- أعدم ولادى لو كان دخل بيتى جرام منها، محدش كان فاضى يا عم دومانى.. كنا متحاصرين من الشرق والغرب . مين كان فاضى يستحمى، أو ينام على بطاطين، والرصاص بيلعلع حوالين ودانه؟ .

- طب ومخلفات الجيش .. وغنايم العدو؟

- قصدك الدبابات المحروقة، والمدافع المكسورة.. و..

- وحديد الدشم وكابلات الكهرباء وقضبان السكة الحديد؟

- لو كنت طمعت فى حاجة مكانش دا بقى حالى!!

وماتنساش إن كل مفاتيح السويس كانت فى جيبى، وماكانشى حدها يلومنى لو أخدت أى حاجة أوكسرت أى خزنة .. صباح الفل!!

- جرى إيه ياخونا..؟ الناس بتشرب عشان تنسى..وإنتم بتشربوا عشان تفوقوا؟ أعوذ بالله.. إنتوا مبتعرفوش تفرحوا أبداً؟

هكذا صاح شكرى محتدا.. فغير غزالى من لهجته:

- إحنا خسرنا كتير ياخونا، وضهرنا خلاص وصل لآخر جدار لازم نشوف حل .. وناخد موقف.

- من إيه؟

- من إيه؟.. من منقوع البراطيش اللى بنشربه ده ..أنت يا ست يا رومية ياللى اسمك بابيتا.. فين الفينو بيانكى؟

- سكوزى سنيورى.. سيبتو..سيبتو..

- كركوديا. نو كارنى دى ميالى.. كابيتو؟

- كابيتو سنيورى.

- مولتو بينى. أية حاجة فيها لحم خنزير نو.. كيكوزاسى ديفى منجارى.. بسرعة!!

- دا أسبانى ولا برتغالى ياغزالى؟

- برتغالى إيه يا نمرة.. ده إيطالى.

- وإنت عرفت إنه إيطالى منين؟

- منين؟ حيكون إيطالى منين ؟ من المراكب اللى كانت فاتحة بيوتنا ومعوضانا عن الفقر والقهر:

طليان على جريج على فرنساوية على روس.. كله على كله!!

- فى صحتك.

الفصل العشرون

صحوت بعد الظهر فوجدت شكرى راقداً على وجهه، وقد احتضن بطانية جيش لا أعرف من أين جاء بها، غسلت وجهى وأسنانى، وعلى رخامة المطبخ الصغير، شممت رائحة الفول، والبيض المسلوق، والعجة، وجبنة الريكفورد واللانشون، والمربى بجوار ترموس شاى واللبن، وفاكهة الموسم!! ناديت على شكرى فقام متثاقلا وقد وضع الفوطة على كتفه، ودخل الحمام، وحين خرج سأل عمن أتى بهذا:

- إيه ده ؟.. مين اللى جاب الأكل ده كله؟

- حيكون مين يعنى؟.. الغزالى طبعا. أقعد أفطر.

وضع الفوطة على جانب وجلس على السفرة. وأكل كما لوكان يأكل لأول مرة!!

- الله.. بقالى سنين ما أكلتش الأكل ده.

بعد ساعة اتصل الغزالى ونعتنا بالكسالى.. ثم أمرنا بالاستعداد لسهرة الجبل.

- جبل إيه ياغزالى؟

- جبل عتاقة يا مغفل.. حسهركم فى خيمة أحسن من خيمة أبو لهب، وأفرجكم على حاجات ماشفهاش هارون الرشيد.

- يقصد إيه يا دومانى بالحاجات دى؟

- إنت بتسألنى أنا.. اسأل ابن بطروخه!!

- ودا مين ابن بطروخه دا كمان.. على فكرة يا دومانى أنتم بقى كلامكم غامض قوى!

- على جماعة الأشرار اللى فى الدور الرابع.. التكرم بالنزول فوراً.. لغزو جبل عتاقة!!

هكذا صاح الغزالى من ميكرفون تاجر روبابيكيا كان يمر فى الشارع ، ففتحت النافذة لأراه مرتكزًا على باب سيارته، وقد ثنى ساقه وأشعل سيجارة. أشرت له بالسمع، فأمرنى بالطاعة.. وفيما كانت شمس الغروب تختفى وراء العمارات الشعبية المتشابهة، سمعته يصيح :

- لازم أعمل لكم زيطة عشان تنزلوا؟!

فتعقبناه بسيارتنا إلى الجبل، سالكين طرقا ترابية وعرة، وأخاديد بركانية جافة، لم يجاملها مطر.

- اتفضلوا.

هكذا صاح الغزالى وتقدمنا نحو خيمة كبيرة منصوبة أعلى الجبل الصامت، وقد أضيئت بمولد كهربائى، وفرشت بالسجاد .

- يا مرحبا يابهوات ..اتفضلوا!

هكذا استقبلنا رجل بدوى خشن الملامح، ودعانا للدخول، فوجدنا شخصين آخرين وسيدة فى مقتبل العمر ترتدى ثياباً بدوية، وتتدعى الخجل، فجلس غزالى إلى شلتة ناعمة، وسأل الرجل عن الأحوال، فطمأنه على كل شىء :

- أمال فين الشيخ غباشى؟

- تمام يا باشا.. موجود.. أهلاً وسهلاً.

هكذا صاح غباشى، وهو يصافحنا بيد جافة، فخلعنا أحذيتنا وجلسنا

بمواجهة المرأة.

- إزيك يا فوقية؟..

- إزيك ياكابتن؟!

- أمال فين البنت شوقية ؟

- عندها وردية !!

كان البدوى يغسل الجوزة، ويقلب النار حول براد القهوة، فيما راح غلام يقطع الحشيش على طبلية بقصافة صغيرة، ويحرص على أن تكون الأحجام متساوية، حين تذكر غزالى أنه نسى شيئاً فى السيارة، فخبط جبهته بكفه، واستأذن خمس دقائق، وفى هذه الأثناء، فتحت المرأة ثلاجة محمولة، ورصت على الطبلية عدة زجاجات ويسكى مستوردة، وكانزات بيرة ألمانى، ومياه سويسرية فواره ، فهمس شكرى فى أذنى وهو يتطلع حوله:

- إيه النظام؟ الحاجات دى لمين؟

- سيب نفسك للمغامرة.. كفاية ملل ورتابة. غيِّر يا أخي!!

دخل الغزالى بكرتونة ملأى بالكباب والكفتة، وحرص على رص السلطات والمزات على جانب، والفواكه الطازجة على آخر.

- إيه كل ده يا غزالى؟.. إنت خربت البلد.

- ما تخرب.. إحنا بقى لنا فيها إيه؟

- مساء الفل يا بهوات!

هكذا صاح عبد السميع وهو يمد الجوزة فى وجه شكرى، ويخرج من منخاريه دخاناً ملأ الخيمة. تراجع شكرى برأسه مندهشا وبدا عليه الرفض والقرف، فمددت فمى وسحبت نفسا وكتمته ، فاندهش شكرى وكأنه يعيد

اكتشافى، فيما ضحك الغزالى وهو يتعجل دوره مردداً:

- يا سلام.. عاش من شافك يا دومانى.. الدنيا فعلا مدوره.. وعلى رأى المثل: السح الدح إمبو.. ادوا الواد لأبوه.

- ملعون أبو أبوه..

- إيه ده يا عبد السميع.. راسك خفت ولا أيه؟ ماقولنا بلاش كلام فى السياسة ..حتفوقونا !

وما إن جاء دور المرأة وسحبت نفسها الأول، حتى لكزنى شكرى، ودعانى لرؤيتها.

- معرفتكوش ببعض: الفنانة اللولبية فوقية التحتانية. ودا الشيخ سحتوت كبير ذئاب الجبل. مفيش حد يقدر يشترى متر أرض من الجبل ده إلا منه. تقولى وضع يد وضع رجل أقولك متفرقش معاه، ويكون فى علمك: ومفيش قرش حشيش يخشك يا سويس إلا عن طريقه..وعمره ما فكر يغش الحشيش.. بيغش الأفيون بس.. وعمره ماحرم حد من حاجة، ولو ضاعت منك حتة سلاح أو شوية دهب ، يجبهالك قبل متسأله، ولو اتزنقت فى بناء جامع أو كنيسة سداد.. عايز تنجح فى مجلسى الشعب أو الشورى ماشى!!

عادت الجوزة لتقف أمام شكرى فرفض، فتداركت الأمر، وطلبنا بيرة، وتركنا فوقية تفتحها لنا بيديها الناعمتين فصلصل ذهب رسغيها.

- ماله شكرى؟ مشربش ليه؟

- شوية شوية يا غزالى.. احنا متعشناش.

فقام على الأكل وفض غلافة الورقى قائلا:

- وحد منعكم؟. كلوا.. أمال أنا جايبه لمين؟ لأمى؟!

مد شكرى يده وسحب إصبعا من الكفتة، وكأنه يعتذر عن ذنب لم

يرتكبه، وتظاهر بشرب البيرة، فيما سحبت قطعة كباب ساخنة وملأت بها فمي، وأنا أديم النظر لصدر فوقية التى قامت بناء على طلب الشيخ.. وخلعت ثياب التنكر ورقصت على أنغام موسيقى بدوية ماجنة، فساعدناها بأكفنا.. فيما ظل غباشى يرص الحجارة ، ولا يحيد بنظره عن مدخل الخيمة!!

سألت الغزالى عن الرجل الغامض الذى يجلس بجوار الشيخ، فهمس قائلاً: جوز شوقية.

ويبدو أن الرجل لاحظ أننا نتكلم عنه، فتشاغل بأكل الكباب، وصب لنفسه ما شاء من الخمور فى كأس طويلة.

ـ طبعا مش فاكرها.. لأنها كانت عيّلة لما كنتم هنا..

هكذا استطرد غزالى هامساً، فسمعه شكرى لكنه لم يسأله ..فأجاب:

ـ بنت سعدية الخولى!

ـ مين سعدية الخولى؟

ـ باين عليك سكرت يادومانى.. زميلتنا يا جدع ، اللى كانت بتوصل الأوامر..

ـ جرى إيه يا غزالى؟ إنت بتكلمنى كما لو كنت عسكرى مراسلة عندك !

ـ يا سيدى عارف إنك كنت قائد الوحدة الشمالية.. و..

ـ قائد المنطقة الشمالية!

ـ قائد المنطقة الهبابية.. اللى العدو ملقاش أسهل منها ولا أطرى عشان يـ...

ـ لأنها كانت المدخل الوحيد للسويس.. وكان التركيز عليها.

ـ خسرنا فيها خيرة ولادنا.. شباب زى الفل.. ضحى بحياته عشان نقدر

نيجى إحنا الخيمة!!

- وأنا خسرت خيرة جنودى وزملائى.. وخسرت رجلى ودراعى وكرامتى..

- وأنا خسرت ابنى الوحيد.. كان عزوتى ورأس مالى.. وتحويشة عمرى !

- جرى إيه يا اخونا ماتصلو على النبى أو مجدو سيدكم..

إحنا مبنعرفش نفرح ؟

هكذا قال المعلم غباشى وهو يعمر الجوزة، وقد توقفت الموسيقى وجلست فوقية متعبة، أشار سحتوت لغباشى أن يملأ الكاسات، فترك ما فى يده، وراح يملأها وكأنه يصالح أطفالا تتشاجر على لعبة !!

- مقلتليش يا غزالى.. مين سعدية الخولى دى.. فكرنى بيها..

هكذا همس شكرى لغزالى فرد على الفور:

- اللى كانت بتبيع بكلاويز على ناصية المحمدى وزغلول ياجدع. البنت الفرعة أم عيون واسعة؟ اللى كانت بتحب الخناق؟

- الله ينور..هجَّرتها الحكومة بالعافية لوجه بحرى، فماتت فى خناقة، وسابت البنت دى - وأشار لفوقية- وأول ما رجع المُهجّرين ورجعت معاهم ، مالقتش بيت تعيش فيه.. لطشت معاها، فاتجوزت راجل قد أبوها، وسابته وهربت مع عيل أصغر منها، وبعد سنتين مسكوها فى بورسعيد، وفى المنصورة عملولها قضية دعارة، ولما طلعت من السجن إتجوزت سجانها، وعاشت مع نسوانه فى أوضة واحدة، وبعدين طلقها فرجعت تانى..حكايات هندية كده توجع القلب، وتقلب الدماغ..

فى صحتك.

-أنا صاحى يا مصر أنا صاحي

واقف فى إيدى سلاحى

وإن كلب لمسنى بكلمة

يحرم عليه صباحى

أنا صاحى يا مصر أنا صاحى

ـ بقولك إيه..متقلبش دماغنا، إحنا دماغنا متكلفة، بلا صاحى.. بلا نايم!!

هكذا قاطعنى غزالى بقرف، وأنا أهمس فى أذنه بما كنا نحب أن نسمعه منه، حتى صاح المعلم سحتوت راجباً:

ـ ما تسمعنا حاجة يا كابتن غزالى "يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى أحشش فوقك وتهيصى انتى"

هكذا هتف عبد السميع وهو ينفخ النار، فصاح الغزالى محتداً:

ـ على فكرة بقى.. انتوا شعب فقرى.. بتموتوا فى النكد والحنين للماضى. ليكم إيه فى الماضى يا غجر.. غير الفقر والظلم والخرافة؟ بتراهنوا على إيه بالضبط؟! كان فيه زمان خمرة زى دى؟.. ويسكى زى ده؟ فودكا زى دى؟ حشيش زى ده؟ ياكفرة ياأعداء العولمة!.. كان عندكم إيه غير منقوع الصرم ، والسينالكو؟ يا عالم سينالكو.. تقفوا طوابير عشان تاخدوا صابونة من غير ريحة، وتقتلوا بعضكم عشان فرخة مسمومة من الجمعية، ولو رحت مستشفى متلقيش غير حديد وزرنيخ ، ولو اعترضت يدخلوك السجن ..وتشوف اللى ماشفتهوش جميلة بوحريد!!

ـ اعمل له قهوة ياغباشى.. خليه يفوق!

هكذا صاح المعلم سحتوت فى غباشى، فبادره الغزالى غاضباً:

ـ القهوة دى تعملها لأمك مش ليه.. أنا عايز بنج.. سم هارى.. حاجة

تفك لساني.. وتحرر روحي من جسمي.. مش تقول:

أنا صاحي يا مصر أنا صاحي؟ ملعون أبوكم.. لأبو غباشي، لأبو المحافظ الجديد ،لأبو مراتي اللي مجنتشي على بعيل غير اللي مات، وبقت خرابة زيك يا سويس، عاقر زيك يا عتاقة، مريضة زيك يا وطن".

وقبل أن تتراكم الهموم وتخفت النجوم، تسللت للخلاء فلحقني شكري وهو لا يعرف ماذا يفعل.. ربما كان يشعر أنه في حلم..

كانت أضواء السويس تتهافت من بعيد، فيما حجب الظلام كل أثر للخليج، لاحظ شكري كثرة الحراس المدججين بالسلاح فطمأنته بأنهم تابعون لسحتوت ،وبدا لنا أن السهرة قد انتهت بمأساة ، ودون أن نستأذن من أحد.. وجدنا أنفسنا نأخذ طريقنا الترابي المقفر إلى الطريق السريع!!

الفصل الحادى والعشرون

ما إن تركنا السويس بصخبها وذكرياتها، حتى لاحت لنا الصحراء الممتدة على الجانبين، وقد حفتها جبال معتمة، وغيوم سوداء، ولاحت الإعلانات التجارية مائلة وكالحة على عمدانها المعدنية القديمة، بعضها يعلن عن سلع نساها الزمن، وأخرى أغلقت مصانعها، أو بيعت لمن غير اسمها وشكلها، وتداولت سلع هُرِّبت من بورسعيد، فلم نعد نقف فى طوابير السجائر، والدجاج المستورد، أو نوصى مغامر ليهرب لنا فيديو من بورسعيد، وامتلأت المحلات بمنظفات صناعية، ومشروبات غازية، وشامبوهات، وامتلأت البيوت بالشاى الإنجليزى، والكبريت السويدى والأرز الباكستانى، والمقرمشات الأمريكية ، والبارفانات الفرنسية ، والملابس التايوانية، واختفت سجائر الكوتاريللى، وكربونات السباتس، ومنتجات الشبراوى، وإدفينا، وصابون النابولسى، ورابسو، وسافو واختفت العسلية، والطوفى، وحلاوة زمان، وشمروخ الغفير!!

وهجم الشيبسى، والكولا..والبيتزا. والماكدونالدز، والعقيقة ..والـ ..

قال شكرى متحسراً:

-"ليتنا ما رأيناك يا سويس.. ليتنا ما جئنا"!!

ثم تطلع نحو الجبال القاحلة، وطلب شايا فصببت له من ترموس صغير، ما إن رشف رشفة منه حتى أعاده متقززاً وأكد: أنه مر.

– خلاص ياشكرى؟.. كل حاجة بقت مرة ؟ أكيد دى لعنة الغزالى!!

قلت ذا بإنفعال، ووضعت (بمبوناية) فى فمى، فوجدتها.

– بدورها.

– مزة !!

– على فكرة .. إحنا محتاجين لثورة !!

هكذا صاح شكرى وكأنه يحلم .. فقلت:

– ثورة على إيه..ولا إيه؟ إحنا مش انتصرنا؟!

– وعشان كده عاوزين ثورة.. ثورة على كل حاجة!!

بدا لى كأنه يخاطب المجهول، فقلت وأنا أحثه على الانتباه :

ـ طب بص قدامك..البركة فى اللى حاربنا عشانهم .. عايزين إيه تانى؟!

قال ساخراً :

– اللى حاربنا عشانهم؟ إنت بتحلم.. إوعى تكون فاكر إن فيه حد لسه فاكر.. إنسى يامنسى.

ثم استدرك وهو يهدئ السرعة:

– حنشوف بعض تانى يا عبدالحميد؟

– أكيد ولا أنت عندك حل تانى؟

– إذن حنشوف بعض.

تصافحنا بحرارةٍ دون أن نتكلم، ولا أذكر من منا بادر بعناق الآخر. أو نطق بجملة الوداع، كنا قد وصلنا إلى مفترق، وبات على شكرى أن ينعطف نحو السباعية، فيما آخذ طريقى العكسى إلى القاهرة!!

وحين أتى الأتوبيس، حاول شكرى أن يرافقنى بالحقيبة، بعد أن استنفد كل الحيل لإبقائى ، فمنعته بإشارة ناهية، بدت لى محرجة، وماكدت آخذ طريقى إلى المقعد الأخير، حتى شعرت بأننى تركت آخر خنادقى للأعداء،

واخترت أن أعود لأموت فى بيتى الخرب البعيد، وقبل أن يتحرك الباص، وجدتنى أسحب حقيبتى وأنزل هائما، لأجد شكرى لايزال ينتظرنى كطفل يتيم وجد أهله، فما أن رآنى حتى فاضت مشاعره، ولون الفرح ملامحه، فأخذت طريقى غير عابئ بذهوله، إلى مقعد القيادة، وأمرته بالركوب فركب كأنه مخدر، وفيما كنت أشق لطريق نحو السباعية، وجدتنى أصيح بصوت واثق:

- إوعى تفتكر إن معركتنا انتهت!!

رمقنى بحزن شفيف ولم يعلق ، فرفعت عقيرتى بأغنية شعبية داعرة، وأنا أميل بالسيارة نحو اليمين ونحو اليسار، فيما ظل شكرى سادراً فى صمته، قبل أن ينفجر بضحكٍ عال جزيل، وهو يميل معى حيث أميل، وقد تبللت عيناه بدمع عزيز.. وفيما كنت أنهى أغنيتى، سمعته يهمس كأنه فى حلم جميل:

- شكراً ياعبد الحميد!!

الهرم - ٢٠٠٨

هذه الرواية

تبدأ رواية «الحائط الأخير» بقول مولانا جلال الدين الرومي: «المرء مع من لا يفهمه.. سجين»، ولكن الرواية تخلو من سجن، ولم يدخله يوما أي من بطليها، وهما محاربان سابقان شاركا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ كلاهما غريب، يبحث عن الآخر، في محاولة لاستعادة زمن، وترميم ذاكرة، ثم يعثر أحدهما، في بيت أشبه بمتاهة قوطية، على الآخر، كان سجين جسده الذي التهمت الحرب بعضه، وسجين قصر وضحية أخت قاسية في غموضها.

يتحرر المحارب القديم العاق من سجنه المزدوج، ويقود سيارته، في مغامرة تنتهي بهما إلى مدينة السويس، ويفاجآن بتحولات تفضح خديعة الانفتاح الاقتصادي. لا يميل السرد إلى التقرير المحايد، ولا الشعارات الزاعقة، بل يصنع من المرارة مشاهد موجعة، وهما ينكران قبح الواقع: «هل هذه هي السويس بالفعل؟ السويس التي ضحينا بحياتنا وراهنا بعمرنا من أجل أن تكون أم المدن».

لا يأسى الصديقان على ما فات، رغم الوعي بأن الخسارة فادحة، والتضحيات كنستها بلا رحمة ريح الانفتاح، ولم يبق إلا «الجدار الأخير»، الذاكرة. إنها رواية مشغولة بالحنين.

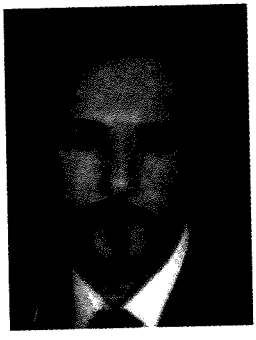

سمير عبد الفتاح

قابلت سمير عبد الفتاح عام ١٩٩٣، وربما قبل ذلك بأشهر. في وقت سابق، قرأت قصته القصيرة «أخي محمود»، لا أذكر أين ولا متى؟ ولكني أشفقت على بطلها وأصبح صديقي، ونسيت اسم الكاتب، إلى أن وجدت القصة في الكتاب القصصي المشترك «وحان وقت الاختيار» (١٩٨٦)، فتذكرت اسم كاتبها، وعرفت أنه شارك في حرب أكتوبر.

في ذلك العام، ١٩٩٣، صدرت مجموعتي القصصية الأولى «مرافئ للرحيل»، وكتب كلمة الغلاف خيري عبد الجواد، وأعطاني صورة من تقرير كتبه عنها إبراهيم عبد المجيد بمحبة كبيرة. خيري عبد الجواد وأحمد رزروز يرتبطان بذكرى قديمة، بالعدد الخاص بالأدب المصري الحديث في مجلة «٤٨»

الصادرة في خريف ربيع ١٩٨٩، وأسهمت فيه بمقال لا أحب الآن أن أتذكره.

خرجنا من هيئة الكتاب، وأخبرني خيري بقرب صدور المجموعة القصصية الأولى لسمير عبد الفتاح «سبع وريقات شخصية لعامل التحويلة المنتحر». ولم يستغرق توثيق الصداقة كثيرا، فتآلفت مع سمير، وشجعته على الكتابة في «الأهرام المسائي» فكتب إضاءات عن كثيرين، ومنهم بعض كارهي البشر ممن لم يكن لهم كتاب منشور، ولكن سمير بإخلاصه للفن والجمال كان يرصد الموهبة، ويدعم بالكلمة الطيبة صاحبها، ولو كان فظا خشن الطباع.

لم تجمع إضاءاته النقدية التطبيقية في كتاب، رغم إعلان ناشر صديق، صديق لكلينا، عن الكتاب ومؤلفه في الصفحة الأخيرة لإصداراته، وآثر سمير أن يواصل الكتابة، وأصدر مجموعات قصصية وروايات منها «تطهر الفارس القديم» و«حارس الغيوم» و«خيانة شرعية» كتابة مقتصدة، غير مترهلة، متقشفة أحيانا، تنجو من غواية التفاصيل، وتنتصر لفن القول.

نشرت لسمير فصلا من روايته الجديدة «الحائط الأخير» في «الأهرام المسائي»، ثم أبدى رغبته في نشرها في «روايات الهلال»، وتكلمنا بشأنها، وقلت له إنك تستسلم لوهم المرض، وقال إنه لا يحتمل فكرة المرض نفسها، وكان صوته عفيا في المكالمة الأخيرة قبل يومين اثنين من الرحيل، وهو يكره طيف الموت، ولم أنتبه لغيابه عن جنازة أو عزاء، ولكن المقال الذي كتبه، ونشر بعد وفاته في مجلة «المجلة» (سبتمبر ٢٠١٤) عن أحمد زرزور يفسر لي هذا الخوف، ففي السطور الأولى يقول سمير عبد الفتاح: «أكره الموت كرها لا يحد، ولم يحدث يوما أن شاركت في دفن صديق، أو حضور عزاء، باستثناء العزاء الوحيد في يوسف إدريس بمسجد عمر مكرم، وجنازة «نسيبه» خيري عبد الجواد».

بعد رحيله اكتشفت أن ما كتب عنه لا يليق بجهوده. كان العزاء يشبه سمير الذي مضى خفيفا زاهدا، كما عاش خفيفا زاهدا لا ينظر إلى ما حصده غيره، مستحقا أو غير مستحق. حتى الذين سهر ليكتب عن أعمالهم المبعثرة في صحف ومجلات لم يشيروا إليه، ولا ذكروه، ومن حسن حظه أن الموت حجب عنه هذه الحقيقة، رحمه الله.

سعد القرش

رقم الإيداع: ٢٢٨٦٧ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978- 977- 07-1677 - 9

سلسلة روايات الهلال

تقدم

مثل ترنيمة

قناع هنديّ لحياة دستويفسكي

تأليف: بيرومبادافام سري دهاران

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

تصدر في ١٥/١/٢٠١٥

الطباعة: مؤسسة دار الهلال - القاهرة

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

تذوق متعة القراءة مع
أحلى القصص، وأجمل الروايات

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقي الفجالة ،
4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت : 22586197 - 24677371 - 24677138
فاكس - 202/24677188 ج.م.ع ، 4 ش بدوي محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850